مأساة ياسر

ثلاثة أعوام هي تجربتي مع التدريس في مدرسة ابتدائية.. قد أنسى الكثير من أحداثها وقصصها.. إلا قصة (ياسر)!! كان ياسر طفل التاسعة في الصف الرابع الابتدائي.. وكنت أعطيهم حصتين في الأسبوع... كان نحيل الجسم.. أراه دومًا شارد الذهن.. يغالبه النعاس كثيرًا.. كان شديد الإهمال في دراسته.. بل في لباسه وشعره دفاتره كانت هي الأخرى تشتكي الإهمال والتمزق!! حاولت مرارًا أن يعتني بنفسه ودراسته.. فلم أفلح كثيرًا!! لم يجد معه ترغيب أو ترهيب!! ولا لوم أو تأنيب!! ذات يوم حضرت إلى المدرسة في الساعة السادسة قبل طابور الصباح بساعة كاملة تقريبًا. كان يومًا شديد البرودة.. فوجئت بمنظر لن أنساه!! دخلت المدرسة فرأيت في زاوية من ساحتها طفلين صغيرين.. قد انزويا على بعضهما.. نظرت من بعيد فإذ بهما يلبسان ملابس بيضاء.. لا تقي جسديهما النحيلة شدة البرد.. أسرعت إليهما دون تردد.. وإذ بي ألمح (ياسر) يحتضن أخاه الأصغر (أيمن) الطالب في الصف الأول الابتدائي.

ويجمع كفيه الصغيرين المتجمدين وينفخ فيهما بفمه!! ويفركهما بيديه!! منظر لا يمكن أن أصفه.. وشعور لا يمكن أن أترجمه!! دمعت عيناي من هذا المنظر المؤثر!! ناديته: ياسر.. ما الذي جاء بكما في هذا الوقت!؟ ولماذا لم تلبسا لباسًا يقيكما من البرد!! فازداد ياسر التصاقًا بأخيه... ووارى عني عينيه البريئتين وهما تخفيان عني الكثير من المعاناة والألم التي فضحتها دمعة لم أكن أتصورها!!!! ضممت الصغير إليّ.. فأبكاني برودة وجنتيه وتيبس يديه!! أمسكت بالصغيرين فأخذتهما معي إلى غرفة المكتبة.. أدخلتهما.. وخلعت الجاكيت الذي ألبسه وألبسته الصغير!! أعدت على ياسر السؤال: ياسر.. ما الذي جاء بك إلى المدرسة في هذا الوقت المبكر!! ومن الذي أحضركما!؟ قال

ببراءته: لا أدري!! السائق هو الذي أحضرنا!! قلت: ووالدك!! قال: والدي مسافر إلى المنطقة الشرقية والسائق هو الذي اعتاد على إحضارنا حتى بوجود أبي!! قلت: وأمـــك!! أمك يا ياسر.. كيف أخرجتكما بهذه الملابس الصيفية في هذا الوقت!؟ لم يجب (ياسر) وكأنني طعنته بسكين!! قال أيمن (الصغير): ماما عند أخوالي!!!!!! قلت: ولماذا تركتكم.. ومنذ متى؟! قال أيمن: من زمان.. من زمان!! قلت: ياسر.. هل صحيح ما يقول أيمن؟! قال: نعم يا أستاذ من زمان أمي عند أخوالي.. أبوي طلقها... وضربها.. وراحت وتركتنا.. وبدأ يبكي ويبكي!! هدأتهما.. وأنا أشعر بمرارة المعاناة وخشيت أن يفقدا الثقة في أمهما.. أو أبيهما!! قلت له: ولكن والدتك تحبكما.. أليس كذلك؟! قال ياسر: إيه.. إيه.. إيه.. وأنا أحبها وأحبها وأحبها.. بس أبوي!! وزوجته!! ثم استرسل في البكاء!! قلت له: ما بهما ألا ترى أمك يا ياسر؟! قال: لا.. لا.. أنا من زمان ما شفتها.

أنا يا أستاذ ولهان عليها مرة مرة!! قلت: ألا يسمح لك والدك بذهابك لها؟! قال: كان يسمح بس من يوم تزوج ما عاد سمح لي!!! قلت له: يا ياسر.. زوجة أبوك مثل أمك.. وهي تحبكم!! قاطعني ياسر: لا.. لا. يا أستاذ أمي أحلى.. هذه تضربنا... ودايم تسب أمي عندنا!! قلت له: ومن يتابعكما في الدراسة؟! قال: ما فيه أحد يتابعنا.. وزوجة أبوي تقول له إنها تدرسنا!! قلت: ومن يجهز ملابسكما وطعامكما؟ قال: الخادمة.. وبعض الأيام أنا!! لأن زوجة أبوي تمنعها وتخليها تغسل البيت!! أو تروحها لأهلها!! وأنا اللي أجهز ملابسي وملابس أيمن مثل اليوم!! اغرورقت عيناي بالدموع.. فلم أعد أحتمل!! حاولت رفع معنوياته.

فقلت: لكنك رجل ويعتمد عليك!! قال: أنا ما أبي منها شيء!! قلت: ولماذا لم تلبسا لبس شتوي في هذا اليوم؟ قال: هي منعتني!! قالت: خذ هذي الملابس وروحوا

الآن للمدرسة.. وأخرجتني من الغرفة وأقفلتها!!! قدم المعلمون والطلاب للمدرسة.. قلت لياسر بعد أن أدركت عمق المعاناة والمأساة التي يعيشها مع أخيه: لا تخرجا للطابور.. وسأعود إليكما بعد قليل!! خرجت من عندهما.. وأنا أشعر بألم يعتصر قلبي.. ويقطع فؤادي!! ما ذنب الصغيرين!؟ ما الذي اقترفاه!؟ حتى يكونا ضحية خلاف أسري.. وطلاق.. وفراق!! أين الرحمة!؟ أين الضمير!؟ أين الدين!؟ بل أين الإنسانية!؟ أسئلة وأسئلة ظلت حائرة في ذهني!! سمعت عن قصص كثيرة مشابهة.. قرأت في بعض الكتب مثيلًا لها.. لكن كنت أتصور أن في ذلك نوع مبالغة حتى عايشت أحداثها!! قررت أن تكون قضية ياسر وأيمن.. هي قضيتي!! جمعت المعلومات عنهما وعن أسرة أمهما.. وعرفت أنها تسكن في الرياض!! سألت المرشد الطلابي بالمدرسة عن والد ياسر وهل يراجعه!؟ أفادني أنه طالما كتب له واستدعاه فلم يجب!!

وأضاف: الغريب أن والدهما يحمل درجة الماجستير.. قال عن ياسر: كان ياسر قمة في النظافة والاهتمام.. وفجأة تغيرت حالته من منتصف الصف الثالث!! عرفت فيما بعد أنه منذ وقع الطلاق!! حاولت الاتصال بوالده.. فلم أفلح.. فهو كثير الأسفار والترحال.. بعد جهد.. حصلت على هاتف أمه!! استدعيت ياسر يومًا إلى غرفتي وقلت له: ياسر لتعتبرني عمك أو والدك.. ولنحاول أن نصلح الأمور مع والدك.. ولتبدأ في الاهتمام بنفسك!! نظر إليَّ ولم يجب وكأنه يستفسر عن المطلوب!! قلت له: حتمًا والدك يحبك.. ويريد لك الخير.. ولا بد أن يشعر بأنك تحبه.. ويلمس اهتمامك بنفسك وبأخيك وتحسنك في الدراسة أحد الأسباب!! هزَّ رأسه موافقًا!! قلت له: لنبدأ باهتمامك بواجباتك.. اجتهد في ذلك!! قال: أنا ودي أحل واجباتي.. بس زوجة أبوي تخليني ما أحل!! قلت: أبدًا هذا غير معقول.. أنت تبالغ!! قال: أنا ما أكذب هي دائمًا تخليني أشتغل في البيت وأنظف الحوش،،،!! صدقوني..

كأني أقرأ قصة في كتاب!! أو أتابع مسلسلة كتبت أحداثها من نسج الخيال!! قلت: حاول أن لا تذهب للبيت إلا وقد قمت بحل ما تستطيع من واجباتك!! رأيته.. خائفًا مترددًا.. وإن كان لديه استعداد!! قلت له (محفزًا): ياسر لو تحسنت قليلًا سأعطيك مكافأة!! هي أغلى مكافأة تتمناها!! نظر إليَّ.. وكأنه يسأل عن ماهيتها!! قلت: سأجعلك تكلم أمك بالهاتف من المدرسة!! ما كنت أتصور أن يُحْدِثَ هذا الوعد ردة فعل كبيرة!! لكنني فوجئت به يقوم ويقبل عليَّ مسرعًا.

ويقبض على يدي اليمنى ويقبلها وهو يقول: تكف.. تكف.. يا أستاذ أنا ولهان على أمي!! بس لا يدري أبوي!! قلت له: ستكلمها - بإذن الله - شريطة أن تعدني أن تجتهد.. قال: أعدك!! بدأ ياسر.. يهتم بنفسه وواجباته.. وساعدني في ذلك بقية المعلمين فكانوا يجعلونه يحل واجباته في حصص الفراغ... أو في حصة التربية الفنية ويساعدونه على ذلك!! كان ذكيًا سريع الحفظ.. فتحسن مستواه في أسبوع واحد!!! (صدقوني نعم تغير في أسبوع واحد)!! استأذنت المدير يومًا أن نهاتف أم ياسر.. فوافق.. اتصلت في الساعة العاشرة صباحًا.. فردت امرأة كبيرة السن.. قلت لها: أم ياسر موجودة!! قالت: ومن يريدها؟ قلت: معلم ياسر!! قالت: أنا جدته.. يا ولدي وش أخباره.. حسبي الله على اللي كان السبب.. حسبي الله على اللي حرمها منه!! هدأتها قليلًا.. فعرفت منها بعض قصة معاناة ابنتها (أم ياسر)!! قالت: لحظة أناديها (تبي تطير من الفرح)!! جاءت أم ياسر المكلومة.. مسرعة.. حدثتني وهي تبكي!! قالت: أستاذ.. وش أخبار ياسر طمني الله يطمنك بالجنة!! قلت: ياسر بخير.. وعافية.. وهو مشتاق لك!! قالت: وأنا.. فلم أعد أسمع إلا بكاءها.. ونشيجها!!.

قالت وهي تحاول كتم العبرات: أستاذ (طلبتك) ودي أسمع صوته وصوت أيمن.. أنا من خمسة أشهر ما سمعت أصواتهم!! لم أتمالك نفسي فدمعت عيناي!! يا الله.. أين الرحمة؟أين حق الأم!؟ قلت: أبشري ستكلمينه وباستمرار.. لكن بودي أن تساعديني في محاولة الرفع من مستواه.. شجعيه على الاجتهاد... لنحاول تغييره.. لنبعث بذلك رسالة إلى والده!!! قالت: والده!! (الله يسامحه).. كنت له نعم الزوجة.. ولكن ما أقول إلا: الله يسامحه!! ثم قالت: المهم.. ودي أكلمهم وأسمع أصواتهم!! قلت: حالًا.. لكن كما وعدتني.. لا تتحدثين في مشاكله مع زوجة أبيه أو أبيه!! قالت: أبشر! دعوت ياسر وأيمن إلى غرفة المدير وأغلقت الباب.. قلت: ياسر.. هذي أمك تريد أن تكلمك!! لم ينبت ببنت شفه.. أسرع إليَّ وأخذ السماعة من يدي وقال: أمي.. أمي.. أمي.. تحول الحديث إلى بكاء!! إذا اختلطت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكا!! تركته.. يفرغ ألمًا ملأ فؤاده.. وشوقًا سكن قلبه!! حدثها.. خمس عشرة دقيقة!!.

أما أيمن.. فكان حديثها معه قصة أخرى.. كان بكاء وصراخ من الطرفين!! ثم أخذتُ السماعة منهما.. وكأنني أقطع طرفًا من جسمي.. فقالت لي: سأدعو لك ليلًا ونهارًا.. لكن لا تحرمني من ياسر وأخيه!!ولا يعلم بذلك والدهما!! قلت: لن تحرمي من محادثتهم بعد اليوم!! وودعتها! قلت لياسر بعد أن وضعت سماعة الهاتف: انصرف وهذه المكالمة مكافأة لك على اهتمامك الفترة الماضية.. وسأكررها لك إن اجتهدت أكثر!! عاد الصغير.. فقبَّل يدي.. وخرج وقد افترَّ عن ثغره الصغير ابتسامة فرح ورضى!! قال: أوعدك يا أستاذ أن أجتهد وأجتهد!! مضت الأيام وياسر من حسن إلى أحسن.. يتغلب على مشاكله شيئًا فشيئًا.. رأيت فيه رجلًا يعتمد عليه!! في نهاية الفصل الأول ظهرت النتائج فإذا بياسر الذي اعتاد أن يكون ترتيبه بعد العشرين في فصل عدد طلابه (٢٦) طالبًا يحصل على الترتيب (السابع)!! دعوته إليَّ وقد أحضرت له ولأخيه هدية قيمة.. وقلت له: نتيجتك هذه هي رسالة إلى والدك..

ثم سلمته الهدية وشهادة تقدير على تحسنه.. وأرفقت بها رسالة مغلقة بعثتها لأبيه كتبتها كما لم أكتب رسالة من قبل.. كانت من عدة صفحات!! بعثتها.. ولم أعلم ما سيكون أثرها.. وقبولها!! خالفني البعض ممن استشرتهم وأيد البعض!! خشينا أن يشعر بالتدخل في خصوصياته!! ولكن الأمانة والمعاناة التي شعرت بها دعت إلى كل ما سبق!! ذهب ياسر.. يوم الاثنين بالشهادة والرسالة والهدية بعد أن أكدت عليه أن يضعها بيد والده.

في صبيحة يوم الثلاثاء.. قدمت للمدرسة الساعة السابعة صباحًا.. وإذ بياسر قد لبس أجمل الملابس يمسك بيده رجلًا حسن الهيئة والهندام!! أسرع إليَّ ياسر.. وسلمت عليه.. وجذبني حتى يقبل رأسي!! وقال: أستاذ.. هذا أبوي.. هذا أبوي!! ليتكم رأيتم الفرحة في عيون الصغير.. ليتكم رأيتم الاعتزاز بوالده.. ليتكم معي لشعرتم بسعادة لا تدانيها سعادة!! أقبل الرجل فسلم عليّ.. وفاجأني برغبته تقبيل رأسي فأبيت فأقسم أن يفعل!! أردت الحديث معه فقال: أخي.. لا تزد جراحي جراحًا.. يكفيني ما سمعته من ياسر وأيمن عن معاناتهما مع ابنة عمي (زوجتي)!! نعم أنا الجاني والمجني عليه!! أنا الظالم والمظلوم!! فقط أعدك أن تتغير أحوال ياسر وأيمن وأن أعوضهما عما مضى!! بالفعل تغيرت أحوال ياسر وأيمن.. فأصبحا من المتفوقين... وأصبحت زيارتهما لأمهما بشكل مستمر!! قال الأب وهو يودعني: ليتك تعتبر ياسر ابنًا لك!! قلت له: كم يشرفني أن يكون ياسر ولدي!!.

كم أحدث الطلاق من معاناة!! كم هم أمثال ياسر!! ووالد ياسر!! آهٍ.. كم أتمنى معرفة أخبار ياسر بعد عشر سنين من تركي لحقل التعليم!!!!.

رعاك الله يا ياسر.. وأصلحك.. وأقر بك عين والديك!!!! (*).

(*) شبكة «أنا المسلم».

السعادة لا تشترى بالمال

الحياة حب وتفاهم، بذل وتعاون بين عنصرين يتعايشان بعضهما مع بعض، يتنفسان ذات الهواء، ويشتركان في نفس المكان، يبذلان ويضحيان من أجل استمرارية حياتهما ونقاء عيشهما، وهما في كل ذلك يستشرفان مستقبلًا باسمًا مزدانًا بذرية طيبة،وهكذا تسير بهما السفينة هادئة وقوية وصامدة أمام الأعاصير بحول الله وقوته.

أما إن كانت الحياة مليئة بالأنانية وحب الذات والشح والتسلط وفي ظلها يعيش شخصان بعيدان بعضهما عن بعض كلٌ يفكر بمفرده ويسعى لمصلحته فإن التصدع والتشقق سينالان من مكانة السفينة وقوة بنائها، ومن ثم يخترقها الماء فتغرق أو ربما تبعثرت أشلاء عند أول هبوب للرياح!!

هذا العيش القفر لا يمنح الدفء أبدًا، والمال (عصب الحياة) لا يضخ الحياة مهما كثر، بل إنه أحيانًا كان سببًا في وحشة الحياة واكتئابها.

أتسلم راتبًا شهريًا يربو على عشرة آلاف، أعيش في بيت واسع فيه حديقة جميلة بها ألعاب للأطفال، آكل ما أشتهي وألبس ما أحب وأتمدد أحيانًا على الأريكة لأنني لا أجد ما أعمله سوى الخلود إلى الراحة، مقومات السعادة كلها عندي ومع هذا أعيش في النوع الثاني من الحياة، فزوجي يحبني بأجرة!! هل سمعتم عن هذا الحب؟! وأبنائي يخدمونني بأجرة!! يعني (بر) مدفوع الثمن ولا تثريب عليهم فبوالدهم يقتدون!! إن زوجي بصريح العبارة (يبتزني)، فهو كالماكينة لا تسير إلا بالزيت، وهذا الزيت هو راتبي، عرق جبيني!!

زوجي يوصلني إلى العمل لذا فهو يأخذ ثمنًا لذلك، لأنه لو لم يوصلني فسأضطر على استئجار سيارة بسائقها بتلك القيمة، ولأنه زوجي وينام في البيت لحين أوقظه في

الوقت الذي أريد فيجب أن تكون الأجرة مضاعفة وأنا أدفع راضية فهو أولى من البعيد وآمن من الغريب.

ولأنه يوصلني إلى عملي بسيارته فإن علي أن أتكفل دائمًا بقيمة الإصلاحات التي تحتاجها السيارة، وهو لا يصلحها إلا في الوكالة ولا يشتري لها إلا قطع الغيار الأصلية مهما كلفت من ألوف، وماذا عليه ما دام لن يدفع ريالًا واحدًا فجيبي سداد وكأنها سيارتي الخاصة وكأنه لا يستعملها إلا لحاجتي فقط.

لقد دفعت ثمانية آلاف ريال قيمة صدمة تعرضت لها السيارة، وماذا أفعل فإن لم أدفع لن أذهب على العمل، ولن يذهب أبنائي إلى مدارسهم، بل إنني أدفع قيمة السيارة التي يستأجرها حين تكون سيارته في الصيانة وهي بالتأكيد سيارة فارهة آخر موديل.

أبنائي سبعة وأنا وزوجي صرنا تسعة حين نشتهي طعامًا مميزًا أو نرغب في تناول العشاء خارج المنزل فما علينا إلا أن نختار المطعم ونوع العشاء ولك أن تتخيل كل واحد من هؤلاء السبعة وهو يفرض نوعًا معينًا أو طبقًا يختلف عن الآخر، ثم لنا إن أردنا الأكل في المطعم أو الخروج بالعشاء في أحد الشاليهات أو القرى الترفيهية في أطراف البلد. لنا كل ذلك ما دمت سأدفع أنا فإن قبلت تكرم بقبول عرضنا وإن رفضت أو تقاعست في الدفع خرج وتركنا نجتر حسرتنا وجعلني أبدو أمام أبنائي شحيحة ومقصرة في حقهم.

لم يبق لزوجي مجال ينفق فيه علينا، فالعلاج من شؤوني، هو مستعد أن يذهب بي إلى أرقى المستشفيات مادمت سأدفع، والأسواق يأخذني لها إن تأكد أن بطاقة الصرف في حقيبتي وهو يسألني دائمًا عنها ويطمئن عليها في مثل هذه الحاجات.

إنني حين أعلن سياسة التقشف في الإنفاق أواجه منه بالصدود والهجران فتكفهر الدنيا في وجهي ويضيق بي المكان ويعظم عليه الحال فيتجهم غاديًا ورائحًا فلا أجد لي

متنفسًا إلا العودة لحالتي الأولى. أنا الآن تحت ضغط الأبناء وإلحاحهم أجهز لتحديد وجهة السفر ومدته وحساب كل ما يتعلق بذلك بما فيه تذاكر السفر لنا جميعًا لأنه لن يمانع من مرافقتنا له فلن يكلفه السفر قرشًا واحدًا، وأنا لن أقصر في سبيل الترفيه عن أبنائي وتجنيبهم هذا الجو الخانق. إنني في الحقيقة لا أستطيع أن أفعل ذلك.

أنا كل يوم أدفع بدل وظيفة وبدل خروج من البيت، وإذا لمحت إلى ترك الوظيفة والجلوس في البيت قامت قيامته وهدد وتوعد، وحق له فكل شيء في البيت فيه بعض مني الأثاث، الجدران، الغرف، بل حتى الطعام في بطونهم، إن علي أن أدفع لأعيش، وأدفع لأتنزه، وأدفع لآكل، إنني أحاول شراء سعادتي بهذا المال فذهب المال ولم أحصل على سعادتي، ولو نضب هذا النبع لساءت الخدمة وقلَّت الإمكانات وشانت الأنفس فإلى الله المشتكى والسلام(*).

«زوجتك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

يلمزوننا بألسنتهم

اقترنت برجل طيب، متفهم لطبيعة المرأة، ولمصاعب الحياة، يأخذ الأمور بيسر وسهولة، ينظر إلى الدنيا بتفاؤل وأمل، ويرى في الصعاب امتحانات لنا إما أن نتجاوزها ونتعلم منها وهذا هو المأمول، وإما أن تعوقنا عن هدفنا وهذا ليس شيئًا جيدًا، فحين نتعلم من مشاكلنا نكتسب معرفة جديدة وتفتح أمامنا آفاق رحبة فنرى الحياة بشكل مختلف إذ نزداد بها معرفة وتعمقًا مما يمكننا من سبر أغوارها وكشف حقيقتها؟ فيسهل علينا طرق دروبها وفك رموزها.. لذا فالمشاكل تأتي بخير!!

زوجي طيب الخلق، لين الطباع، سهل المعشر، لا يحب تعقيد المشاكل، ومحدثتكم يقولون عنها إنها طيبة وتحب خدمة من حولها وهي مسالمة ولا تحب الخوض في مشكلات كبيرة، لذا أنا وزوجي متفاهمان والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، حياتنا مبنية على أسس سليمة من التعاون وحب الآخر واحترامه ومراعاة مشاعره، مبادئنا واحدة، لا نختلف كثيرًا في طباعنا وميولنا واهتماماتنا، منهجنا في تربية الأولاد متوافق، نستشير بعضنا في كل ما يعرض لنا، أسعى لرضا زوجي وهو يحب إسعادي لذا عشنا في سعادة ورضا والحمد لله أولًا وآخرًا.

ينطبق علينا المثل القائل: وافق شن طبقه...ولكن هل جلب لنا التوافق السعادة التي نرجوها؟!

لقد جلب لنا السعادة داخل بيتنا أما خارجه فإن الناس لا تترك أحدًا وشأنه فمازال أهلي وأهل زوجي يلمزونني دائمًا بأنني امرأة مسيطرة ومتحكمة في زوجي وأن الكلمة لي، والرأي رأيي، ومقود السيارة في يدي، ومفاتيح القيادة في جيبي!! أي بهتان هذا الذي يفترونه!! إنهم يتحدثون من خلال ما يرونه من تصرفات هي في نظرهم لا

يمكن أن تتم بموافقة من الزوج، بل لابد فيها من قهر وإجبار، مثلًا حين أحضر معظم المناسبات وأترك أبنائي في البيت عند والدهم فهم لا يستوعبون أن هناك أبًا يحتمل البقاء مع أولاده في مثل هذه الحالة رغم أن هذا يحدث برضا تام منه وتفهم، وعلى هذا اتفقنا منذ زمن ولما شعرت بحاجة أمي إلى خزانة ملابس بادرت بشرائها دون أن تطلب مني ذلك، وتكفل زوجي - رعاه الله - بإرشاد العمال إلى البيت ووقف إلى جانبهم وهم يقومون بتركيبها حتى فرغوا من عملهم ثم انصرف دون أن ينتظر من أمي شكرًا أو ثناء، ولما كان آخر الأسبوع اجتمعنا عند أمي فما كان من عبير إلا أن لمزتني قائلة: لا أعرف ماذا تصنعين حتى يكون زوجك رهن إشارتك ثم توالت التعليقات وسط صمتي وابتسامتي.

إن زوجي عن قناعة تامة ودون ضغط أو إزعاج مني يأخذني في زيارات لصديقاتي ويترك لي حرية ضرب المواعيد معهن وهو لا يسير أبدًا على مزاجي.

ونحن متفقان كليًا على الوجبات اليومية التي تشكل لبعض قريباتي هاجسًا يوميًا ففي حين يقمن بصنع العديد من الأصناف وتنويع سفرة الطعام كل يوم تقريبًا أكتفي وزوجي وأولادي ببعض الأطباق الخفيفة كالساندويتشات، والسلطات وبعض أقراص البيتزا مع البطاطس المقلي وهذا ليس ديدني دائمًا وإنما هو لا يمانع أبدًا من الجلوس على أي سفرة أصنعها، بل يحمد الله بادئًا وخاتمًا، فهو ليس خاتمًا في إصبعي كما تقول لي أخواتي، بل هذا طبعه، حب البساطة يغلف كل تصرفاته.

وهن لا ينقمن مني شيئًا غير أني حين ولدت أختي كنت أذهب إلى والدتي باستمرار أحيانًا أربعة أو خمسة أيام متتالية أساعدها في استقبال الضيوف وإعداد الشاي والقهوة والعصير وهن يرين أن ذلك لضعف شخصيته وتمكني من إدارته حسب هواي ولا يقتنعن أن هذا لطيبته وأنه لا يرى في هذا بأسًا أبدًا!!.

ويقارن بينه وبين العديد من الرجال الذين تجد المرأة صعوبة ومشقة كبيرة في إقناعهم بالذهاب إلى الأهل مرتين في الأسبوع، أو زيارة الصديقات، أو الذهاب معها إلى الأسواق وخلافه ونسوا أن أصابع اليد ليست واحدة أبدًا.

فزوجي طيب مع الجميع، الأقارب، الجيران، جماعة المسجد، الأصدقاء وغيرهم، وهو سمح، سهل في التعامل مع كل من يعرفه، لم أفرض شخصيتي عليهن ولم أحكم سيطرتي عليهن فليس هناك شيء بالقوة يستمر، ماذا كنتم تتصورون: أن أرغمه على فعل أي شيء أريده؟ أن أجبره على قيادة السيارة حيث أريد؟! أو البقاء مع الأولاد وهو لا يرغب؟!.

أبدًا لا يحدث شيء من هذا البتة، بل تتم الأمور بيننا في كل يسر، وتجري على طبيعتها كما يجري النهر من منبعه إلى مصبه بانسياب تام يدفعنا لحمة المبادئ، واتفاق الآراء، وتوحد الأفكار، والنظرة المشتركة لحل كل مشكلة تعترضنا. هكذا هي حياتنا بكل بساطة ليس فيها تعقيد ولا تبكيت، وليس فيها تحرر وتحلل.

هل استطعتم الآن إدراك بعض الحقيقة التي لم تقدروا على استيعابها لضيق أفقكم ومحدودية تفكيركم؟! إذن كفوا عني جشاءكم فهو يؤلمني حقًا(*).

«أختكم»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

الرزق بيد الله ولن يضيعنا

في أشهر قليلة تبدلت حياتنا من سعة إلى ضيق، ومن عافية إلى مرض،ومن فرح إلى حزن، إثر تعرض زوجي لحادث مروري كاد أن يؤدي بحياته لولا لطف الله فخرج من المستشفى بعد مدة وهو مقعد على السرير، عاجز عن الحركة، ولزم البيت في وضع نفسي سيء!!.

كانت تلك الأشهر محكًا حقيقيًا لاختبار مدى صلابتنا وقدرتنا على تحمل الحال، وكانت بالنسبة لي أشهر عصيبة، وضعت فيها أمام امتحان صعب وفي مواجهة مع نفسي للبحث عن مخرج يحفظ لنا كرامتنا ويقينا إراقة ماء وجوهنا عند الناس العمل، لابد من العمل! ولكن كيف؟ والوظائف أبعد من القمر،وامتحانات القبول وشروطه أحد من السيف، وشهاداتي قديمة عمرها أكثر من ستة عشر عامًا!!.

سيكون لزوجي تقاعد ولكنه لن يفي بحاجتنا فهو لتسديد الفواتير وحسب، والوظيفة بعيدة المنال، ووالدي لا يستطيع إعالة سبعة أفواه، ووالد زوجي متوفى، ثم إنني لن أمد يدي إلى أحد.. ولا أرضى أن أكون محل شفقة أحد، إذن لابد من حيلة تخلصني مما أنا فيه، فأبنائي في المدارس وهم يحتاجون من المصاريف الشيء الكثير، ولا أحب أن يشعروا بتبدل الحال، فدراستهم أهم عندي يجب ألا يشغلهم عنها شاغل، الرزق عند الله ولا يمنعه أحد والله لن يضيعنا سبحانه.

العمل كرامة ما دام شريفًا ومن حلال هذا ما قررته مع نفسي حتى قبل أن يخرج زوجي من المستشفى. ففي يوم خميس استيقظت مبكرة، اتصلت بزوجي في المستشفى لأطمئن على حاله، ثم أيقظت ابني وأخذت سيارة أجرة واتجهت إلى السوق مباشرة، اشتريت بعض البضائع مما تحتاجه النساء من لوازم البيت والمطبخ بمال اقترضته من

أبي، وعدت إلى البيت وجهزت غرفة لهذه البضاعة ثم اتصلت بأمي وسألتها من سيأتيهم اليوم؟! قالت لي: أخواتك وربما خالتك وبناتها فعقدت العزم على أن أخطو الخطوة الثانية بكل قوة!!.

لم يكن الموقف سهلا، ترددت مرات كثيرة قبل أن أقدم، وكنت أسبح في عرقي لما دخلت على أهلي محملة بأكياس ثقيلة وأنا أرى في عيون أمي وأخواتي تلك النظرات التي أهرب منها، وبدأت أخذل نفسي وأعنفها على هذا التصرف، ولكنني ما لبثت أن عدت إلى وعيي وتذكرت ما عاهدتها به ألا أمد يدي إلى أحد مهما كانت قرابته.

رتبت بضاعتي على الأرض مناشف كبيرة وصغيرة، قمصان نسائية وللبنات، بعض الأواني المنزلية والمفروشات وغيرها.. وبدأت أعرض ما معي وأتحدث عن أهمية العمل، وعن الكرامة والعزة، وأن العيب ليس في العمل المشروع، بل العيب أن أظل عالة على أحد أو أنتظر العون من أحد، لو أن كل واحد شمر عن ساعديه وقام بأي عمل يستطيعه فحتمًا سيتقلص عدد الفقراء والمحتاجين... قلت كلامًا كثيرًا لم أكن قد رتبت له، وبعضه لم أدركه، فالحرارة التي غشيت وجهي والبرودة التي سرت في أطرافي أثرتا علي بشكل واضح، هل كان كلامي منطقيًا؟! ربما، فخالتي قامت علىَّ وقبلت رأسي وهي تدعو لي: بيَّض الله وجهك ووسَّع لك في الرزق وشجعتني وشدت من عزيمتي، واشترت مني مفرش سرير، وسلمتني قيمته مباشرة فلما آثرت جعلها هدية رفضت وقالت: لو كنت في السوق دفعت أكثر من هذا قيمة له، المسألة بيع وشراء.

كان هذا مما شجعني وجعلني أستمر في عرض بضاعتي على جاراتي وصديقاتي ومعارفي حتى بعد خروج زوجي من المستشفى ومنعه لي من ذلك، استطعت إقناعه بحكمة وروية مقدرة نفسيته السيئة وحالته المزرية فلم أشعره بأن لي فضلًا عليه، وأن المسألة ليست أبدًا تبادل أدوار، بل هي حالة طارئة حتى يتحسن الوضع ويقوم إلى عمله!! وهكذا اقتنع وترك لي الأمر مع علمه أنه لن يستطيع ذلك.

في ظل ظروف كهذه لابد من تنازلات وإن كانت كبيرة، فقد استغنيت عن الخادمة للتقليل من المصروف رغم حاجتي الماسة لها فزوجي يحتاج عناية خاصة وزواره لا ينقطعون، وهذا يتطلب جهدًا بدنيًا كبيرًا إضافة إلى أعمال البيت الأخرى، وقللت من مرات ذهابي إلى أهلي، واجتماعي بأخواتي فمن العيب أن أترك زوجي وحده في هذه الحالة النفسية السيئة فهو إما كئيب حزين لا يود رؤية أحد، أو عصبي متعكر المزاج لا يطيق سماع أحد، وأنا لا أعتب عليه، فمصيبته عظيمة لقد فقد أطرافه، وفقد عمله، وفقد نشاطه.

أنا لا أدعي أن حياتي صارت نعيمًا وأن ظروفي تحسنت ولكن الرضا بالقضاء والقدر والقناعة بالرزق والتعفف عن الحرام، هي قوام السعادة القلبية الحقيقية، إن الفقر سيئ ولكن الأسوأ أن تظل تقلب عينيك ذات اليمين وذات الشمال منتظرًا أن يلقي أحدهم في فمك لقمة تسد بها جوعك ذلك اليوم، متناسيًا أن الأيام أمامك طويلة وتحتاج فيها إلى لقيمات.

جزى الله خيرًا كل من قدم لي سمكة، ولكن الدعاء لا ينقطع لمن علمني الصيد(*).

«أختكم»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandi.com

أخو البنات

تربط الإخوان عادة علاقات متينة، لكن علاقتنا بأخي سيف علاقة من نوع خاص، فهو ليس مجرد أخ، بل هو في مكان الوالد والوالدة، لذا دعائم حبه وطيدة في قلوبنا، هو من يهتم بأمرنا، ويتفقد حاجتنا، في الماضي كان يأخذنا إلى السوق قبل العيد ليشتري لنا الملابس والحي، فوالدي لا يستطيع لكبر سنه، وسيف لا يحب أن نكون أقل من غيرنا، نحن خمس بنات وهذا عدد غير قليل ومع ذلك لم يكن يتضايق من طلباتنا أو يشتري لنا شيئًا لا نريده، بل يأخذنا لتختار كل واحدة منا ما يصلح لها وبذوقها. وكبرنا ولم نستغن عن سيف، كنا نعرض عليه ما يواجهنا من عقبات في حياتنا أو دراستنا ونستشيره في كل أمورنا، ولم لا نفعل ذلك وهو منا بهذه المنزلة؟

سيف هو الذي يسأل عنا في مدارسنا ويتتبع دراستنا ويشجعنا على الاجتهاد، وهو الذي يسأل عن الخطّاب الذين يتقدمون لنا، ويتحرى في سؤاله المواصفات التي تناسب المعنية منا، فإذا كان المتقدم كفؤًا وتمت الموافقة كان هو الذي يرافقنا في السوق لنجهز العروس ثم كان هو المسئول عن مراسم العرس وحفل الزيارة، يخطط وينظم ويتحمل كل شيء.

إننا نشعر بأهميتنا عنده، لذا كثرت حاجتنا له حتى بعد أن تزوجنا جميعنا، فهو حقًا خير مستشار وأفضل مؤتمن، استشارته نوران في أمرها مع زوجها والحالة التي آلت إليها العلاقة بينهما، فكانت حكمته ورشده وصبره الطويل على مشاكلهما خير معين بعد توفيق الله على إصلاح ما بينهما فطابت حياتهما وصفا لهما الود، فكانت سعادته في استقرارهما مع ما أصابه من الهم والتفكير والقلق طيلة تلك الفترة العصيبة.

وغصون لجأت إليه لما أرادت شراء قطعة أرض للاستثمار بمالها الذي ادخرته من وظيفتها، فهي لا تثق بزوجها الذي ظل لسنوات يبتز مالها ويطالبها بثمن توصيلها

لعملها، فهو ربما كذب عليها وجعلنا تدفع أكثر من القيمة الحقيقية، هذا إن لم يستول على مالها أو يفسد مشروعها، لقد قام سيف بهذه الخدمة بنفس راضية وبدون مقابل، بحث لها عن أرض مناسبة وبالمبلغ الذي تستطيعه وكان يأخذها لترى الأرض ويعطيها تصورًا لمستقبلها لتكون على البيضاء وتتصرف بوعي تام.

من لي بمثل سيف لم يكن ينتظر أن تعلن إحدانا عن حاجتها حتى يساعدها، بل هو الذي يبادر إلى السؤال ويتحسس الحال، لم ولن أنس له وقفته معي ومع زوجي حين تعرض لحادث مروري مروع مكث على أثره في المستشفى أسابيع عدة، كان يزوره كل يوم ويزورنا محملًا بلوازم البيت وبما يخطر على باله مما يحتاج إليه الأبناء، ولما خرج زوجي بالسلامة من المستشفى جاءه ليعوده وقدم له في ختام زيارته ظرفًا مغلفًا بعبارات الأسف على القصير، ثم انصرف ولما فتحنا الظرف وجدنا فيه شيكًا بمبلغ عشرين ألف ريال هي قيمة إصلاح السيارة وزيادة، هو لم يسألني إن كنا استطعنا جمع المبلغ أم لا، لكنه بحسه الأبوي علم أننا لن نستطيع جمع نصفه نظرًا لظروفنا المادية الصعبة!! يا له من أخ!! ترى ماذا كنت سأفعل لو لم يكن لي أخ كسيف؟ بل ماذا كنا سنفعل جميعًا؟ إنه يزورنا باستمرار، ويتفقد أحوالنا وكأننا بناته! يكفي فقط زيارته لنا ومكثه عندنا يحتسي معنا الشاي أو القهوة أو يسعدنا بقبوله العشاء معنا، إن هذا فخر لنا، ورفعة أمام أزواجنا، وتعزيز لمكانتنا.

إن الأخ ركن مهم في حياة الأخت، ففقده مصيبة عظيمة وخسارة فادحة، وإهماله لها نقص في حقها وذلك لها، أما اهتمامه بها فهو مبعث فخر لها ترفع به رأسها وتقوي به سلطانها، إن هذا ما نشعر به حقًا، ليس أعذب من مكالمة هاتفية تأتيك من أخيك يسلم عليك ويسألك عن حالك أو يدعوك عنده أو يجمعك بأخواتك.

إن كلمة أخ من حرفين لكنها تحمل من المعاني النبيلة والسامية ما لا تكفي معه الكلمات، حقًا إنه أخ واحد لكنه مبارك يشملنا بعطفه وحبه، الحب والوفاء والألفة والمودة متجسدة فيه.

إننا نحب سيف لذا قررنا أن نجعل له من حر مالنا صدقة جارية يبقى أجرها إلى يوم القيامة، فهذا ما نستطيع مجازاته به، وما زلنا ندعو له في ظهر الغيب، وأجره على الله(*).

«أخواتك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

فاطمة تقية ومفرطة!!

تعجبني فاطمة امرأة طيبة، وأم صالحة، معروفة بحب الخير، فهي أختي الكبرى لذا أعرفها جيدًا، تحرص كثيرًا على حضور المحاضرات فهي مستمعة جيدة، تنصت وتعي ما يقال جيدًا ثم تبثه في مجالسها ليعم نفعه. مؤشر المذياع لا يتجاوز إذاعة القرآن في بيتها تستفيد من البرامج التي تقدمها، وتستمع إلى القرآن لتراجع حفظها وتتقن التجويد.

في العصر تتجه إلى دار الذكر لتنهل من معين القرآن الذي لا ينضب تروي به عطشها لكلام الله، فإن كان هناك محاضرة في مكان ما أو درس علمي لأحد المشايخ أو طلبة العلم اتجهت فور خروجها من الدار إليها وجلست لتستمع في انتباه.

سخرت سائقها لخدمتها في أمور الخير فهي تجتمع مع صاحبات لها يراجعن الحفظ أو يستمعن إلى درس، ترسل لهن السائق ليحضرهن، وهي تجمع ما زاد عن حاجتهن في بيوتهن وتجهزه ثم ترسله مع السائق للجمعية الخيرية.

إنها لا تحب الحديث في أعراض الناس فإذا اجتمعنا في أي مكان حدثتنا عن إحدى المحاضرات التي حضرتها وسمعتها وعن الفائدة التي حصلت عليها.

إنها تحرص كثيرًا على السنن وتؤدي الصلاة في وقتها، فمنذ أن تسمع الأذان وهي تتهيأ للصلاة، لا تشغلها أحاديثنا ولا فكاهاتنا ثم تجلس في مصلاها تذكر الله وتستغفره وتكثر من الدعاء. تعجبني فاطمة في هذا الجانب المشرق حيث لا يمل جليسها حلو حديثها وعذب منطقها، ولكنها مع الأسف لا تعجبني في الوقت ذاته، إذ أن هذا الصلاح وتلك الاستقامة لا يرى أثرها على بناتها، فهن ما زلن على العهد بهن، لم يتغير فيهن شيء منذ التحقت أمهن بدار تحفيظ القرآن وتوجهت نحو أمور دينها.

ربما يظن البعيدون أنها عجزت عن هداية بناتها أو أن بناتها لا يستمعن لها ولا يعبأن بحديثها ولكن الحقيقة التي يراها القريبون شيء آخر فهي أصلًا لم تكلمهن مرة واحدة عن هذه المخالفات، ولا ترى لذلك داعيًا البتة فصلاحها في نفسها، وحجتها أن كل جيل يجب أن يعيش متمشيًا مع زمانه الذي وجد فيه، فكيف تمنع بناتها من شيء وكل البنات في مثل أعمارهن يعملنه، إنها تترك لهن الحرية شفقة عليهن ورحمة بهن أن تكدر خواطرهن بكثرة أوامرها أو كثرة قيودها.

مع الأسف لا يعجبني فيها أنها ترى بناتها على الخطأ ولا يتمعَّر وجهها إنكارًا على الأقل... إن كنت عاجزة عن تغييرهن فاستخدمي عضلات وجهك ليرين أثر أفعالهن عليك وأنها أبدًا لا ترضيك.

أيعقل يا أختي وأنت الملتحقة بدار التحفيظ منذ زمن أن يضايقك نصح أحد لك بهذا الشأن، لماذا أرى آثار الضيق في وجهك حين أحدثك عنهن وعن تفريطهن بحجابهن ولا أرى أثره عليك وأنت ترينهن يخرجن به إلى الأسواق وإلى كل مكان؟! ليس حجة أبدًا قولك أن كثيرًا من البنات كن كذا ثم هداهن الله.

أعلم أنك تتمنين هدايتهن ولكنك لا تفعلين أسبابها وهذا ناتج عن عجز منك وضعف، وإلا فإن من مقتضيات المسؤولية وقاية من هم تحت يدك من الرعية من النار والخوف عليهن من العذاب.

فأين هذا كله من لباس بناتك غير المحتشم بنطلونات، وفساتين بلا أكمام وفتحات من كل جانب، وإن قلت: إن هذه خطوة متأخرة تسبقها خطوات فأنا لم أر هذه الخطوات فما زالت أفكارهن هي هي لم يتحولن عنها، حديثهن عن الفيلم والمسرحية والنجم والفنانة. وتعالي استمعي إلى صرخات الإعجاب وآهات الولع.

حقًا (إنك لا تهدي من أحببت) ولكني لا أحدثك عن هذا، إن ما أحدثك عنه هو هذه السلبية تجاههن؛ حضرتن الحفل ليلة البارحة، دخلت الصالة وعن يمينك اثنتان وعن يسارك واحدة ألم تنظري إلى لباسهن؟ لماذا لا تمنعينهن من الحضور؟ لماذا لم ترغميهن على الاحتشام؟ أين قوامتك عليهن؟ ألست أمهن؟ ألسن بناتك وهن طيبات ولا يخرجن عن طاعتك كما تقولين دائمًا، لماذا لم تستغلي هذه الصفة وتضغطين عليهن... إنك تملكين الورقة الرابحة دائمًا رضاك عليهن مقرون بكذا أم أن هذا الرضا لا يظهر إلا في بعض المواقف التي لا تتنافى مع هواهن والتي تظهر فيها شخصيتك القوية.

إن كنت عجزت عن تقويمهن فلا تدافعي عن أخطائهن وتجاوزاتهن الشرعية، ولا تغضبي إن رأيت الاستنكار في عيون الأخريات فأنت التي تدفعينهن إلى هذا بهذه السلبية والشفق المقيتة!! هدانا الله وإياك إلى الحق(*).

«أختك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

سامي.. وقصة العقوق!!

امرأة طالما تَعِبت في تربية ولدها،، سهرت معه الليالي والأيام حتى تعوِّضه عن أباه الذي فقده وهو صغير،، تركت هذه الأم الزواج طول حياتها من أجله حتى لا يُشاركها أحدٌ في برِّها وعَطْفِهَا وحنانها، كم بذلتْ وكافحت وتحمَّلتْ وصبرت حتى توفِّر لولَدِها لُقْمَةَ العيش، فإليكم قصة أم سامي،،هي الآن تنتظره أنْ يعود من الجامعة!! لأن هذا اليوم هو يوم تخرج سامي من الجامعة، وما هيَ إلاَّ لحظات فإذا بها تسمع صوت سامي يقطع عليها الذكريات: أمي!! لقد نجحت بتقدير امتياز فلم تتمالك الأم نفسها فأخذتْ تبكي فقال لها سامي: لا تبكي يا أمي، سأعوضك إن شاء الله عن كل تعب ومشقة عانيتها، فقال لأمه: إنه يريد الزواج فعرضت أمه عليه ابنة جارهم، فهي فتاة مستقيمة وذات خُلُقْ ودين وجمال، فقال سامي: أنا لا أريدها!! إنها فتاة لا تناسب مستواي، وعقليتها ليست عقلية عصرية متفتحة، أنا أريد الزواج من شقيقة صديقي سمير، فهي فتاة جامعية عصرية مثقفة مُتحررة مُنفتحة غير مُنغلقة أو مُتحجرة، فلقد تعرف عليها سامي عندما اتصل ذات يوم بصديقه سمير فأجابت هيَ على الهاتف فَسَحَرَهُ صوتها وأعجبه كلامها المتحضر فَهامَ فؤاده بها.

لم تنجح محاولات الأم في إقناعه بابنة جارهم، فوافقت الأم على الزواج وهيَ مُكرهة، تزوج سامي ومرَّت الأيام وأم سامي غير راضية عن تصرفات زوجة ابنها، فهيَ لا هَمَّ لها إلاَّ المكالمات والخروج بمفردها أو مع صديقاتها، وكان أكثر ما يُغضب أم سامي هي الملابس التي كانت تلبسها زوجة ابنها، فتحدَّثت الأم إلى ابنها عن هذه الملابس التي تلبسها زوجته فردَّ عليها بكل برود: يا أماه.. إنَّ لكل عصرٍ طريقته الخاصة في الملابس والأزياء، فكَتَمَتْ الأم غيضها ولاذتْ بالصمتْ، ومع مرور الأيام

ازدادت الحالة سوءًا فتحدَّثت الأم إلى ابنها فقال لها: يا أمي أرجوك لا تتدخلي في حياة زوجتي الخاصة، فلزِمتْ الأم الصمت والألم يعتصر قلبها. مرَّتْ الأيام وبدأت الزوجة بالتذمُّر من أم سامي وتتهمها بالإهمال وعدم مراعاة مشاعرها وأنها امرأة مُتطفِّلة، والمشكلة أن سامي كان يُصدِّقها في هذه الاتهامات الباطلة، ومع مرور الأيام ازدادت المشاكل في البيت وكانت أم سامي صابرة مُحتسبة، وبعد أيام وصل بسامي أن رفع صوته على أمه ولومها ولكن الأم كانت صابرة محتسبة حرصًا على سعادة ابنها وزوجته وحفاظًا على بيته من الانهيار.ازداد حُب سامي لزوجته بعد أن وضعت طفلها الأول وقالت له: عليك أن تختارني أو تختار أمَّك فالبيت لا يتسع إلاَّ لواحدة مِنَّا، لم يكن الاختيار صعبًا على سامي فلقد اختار زوجته للبقاء في المنزل وأن تخرج أمه منه، كان التخلص من أم سامي يوم الخميس بعد أن انتهت من صلاة الفجر أتاها سامي وهي على سجادتها فقبَّل رأسها على غير عادته، فقال لها: نُريدك يا أمي أن تخرجي معنا اليوم للنزهة على البحر، فلم توافق أمه إلاَّ بعد محاولات من سامي، خرجوا للنزهة ثم تناولوا الغداء بعد ذلك قال سامي لأمه: سنذهب أنا وزوجتي للسلام على صديقي في الخيمة المجاورة، وأعطاها ورقةً وقال لها: هذا رقم جوالي اتصلي علينا إذا تأخرنا عليك من الكابينة القريبة.

استسلمت الأم للنوم ولم تستيقظ إلاَّ بعد العصر، وسامي وزوجته لم يعودا حتى الآن فهي قلقة عليهم، بحثت عنهما فلم تجدهما فأخذت تبكي على فلذة كبدها وبينما هي كذلك تذكَّرت الورقة التي أعطاها سامي، أخذت تسأل عن كابينة قريبة فقيل لها: إن أقرب كابينة على بُعد كيلو ونصف، فما كان منها إلاَّ ذهبت تجُرُّ خُطاها إلى الطريق الرئيسي لعلها تجد ابنها، وبعد فترة طويلة بعد أن أصابها الخوف والجوع والتعب مرَّتْ بها سيارة يقودها أحد الأخيار فرآها تبكي فوقف ونزل من سيارته وسألها عن حالها

وما هيَ قصتها فأخبرته بالقصة ثم أخذ منها الورقة ويا ليته لم يأخذها فوجد مكتوبًا فيها: (يُرجى مِمَّن يعثر على هذه العجوز التائهة أن يُسلِّمها لأقرب دار للعجزة والمسنين).. لم تُفلح محاولات ذلك الشاب في أن تبقى أم سامي عنده هو وزوجته في البيت، فقام بإيصالها إلى دار العجزة والمسنين. بدأت أم سامي حياتها الجديدة في دار العجزة وهي تقول لنفسها: هل يُعقل أن هذا سامي؟ هل هذا جزاء الإحسان؟ كانت أم سامي شاردة الذهن فقالت لها المشرفة: لقد اتصل بنا سامي وأعطانا رقم هاتفه لنتصل عليه متى احتجنا إليه، فقالت الأم: بل لتتصلوا عليه عندما أموت... حاولت المشرفة وأم سامي الاتصال على سامي ولكن لم تُفلح جميع المحاولات، وفي يوم من الأيام كانت حالة أم سامي خطيرة فاتصلت المشرفة على ابنها فقالت له: إنَّ حالة أمك خطيرة ولابدَّ عليك أن تزورها وتطمئنَّ عليها، فما كان من الابن إلاَّ أن قال: أنا مُتأسِّف، اليوم سفري مع عائلتي لقضاء إجازة العيد في باريس وعندما أعود سآتي لزيارتها!! ازدادت حالة أم سامي سوءًا وكانت في غيبوبتها فكانت المشرفة تسمعها تقول: «اللهم انتقم منه ومن زوجته، اللهم انتقم منه ومن زوجته».

ومع حلول المساء تحسنت حالة الأم فقالت للمشرفة: أنا أشعر بقرب موتي،إذا جاء ولدي لاستلام جثتي قولي له هذه الرسالة: «أمك تقول لك: لا سامحك الله، لا سامحك الله في الدنيا ولا في الآخرة».. فازدادت حالتها سوءًا فإذا بها سكرات الموت ثم فاضت روحها بعد أن نطقت الشهادتين، اتصلت المشرفة على سامي فإذا برجل آخر غير سامي يرد على المشرفة فقالت المشرفة: أين سامي أنا مشرفة دار المسنين أُريده في أمرٍ هام جدًا، فقال الرجل: سامي ذهب ولن يعود، فقالت المشرفة: إنَّ أمه قد توفيت ولابد أن يأتي لاستلام جثتها، فانفجر الرجل باكيًا وقال: أنا شقيق زوجة سامي، لقد كان سامي وزوجته متجهين إلى المطار ليلحقوا بالطائرة وكان سامي يقود بسرعة

فانفجر أحد الإطارات ومع السرعة الزائدة تقلَّبت السيارة عدة مرات وفي غمضة عين تحوَّل سامي وزوجته وطفلها إلى أشلاء ممزَّقة وقِطَعْ متناثرة، لقد كان مشهدًا فظيعًا، لقد استجاب الله لدعوة هذه الأم المكلومة الضعيفة.. فهل من مُعتبر من قصة هذا الابن العاق بأمه؟!(*)..

❁❁❁

(*) شريط «شكوى أم» للشيخ/ علي آل ياسين.

obeikandl.com

التفاعل والاندماج لا الذوبان والتلاشي

يقولون: إن الزوج هو شريك الحياة والزوجة هي شريكة الحياة، يعني أن الزواج هو شركة بين طرفين، وهذه المشاركة تقتضي التفاعل والاندماج لا الذوبان والتلاشي لطرف على حساب طرف آخر فهي كحلقات السلسلة متداخلة في بعضها لكنها قوية ومتماسكة وثابتة، وهذا هو المفروض في سفينة الحياة لتسير في بحر الزمن بكل أمان.

أما إذا استأثر أحد الطرفين بالقيادة وألغى دور صاحبه وهضم حقه في التعبير فإن التخبط والتمزق هما مصير هذه السفينة.

إن الزوج وإن كل رب الأسرة وقائدها والقيم عليها يجب ألا ينسى دور شريكة حياته، فهو لا يقل عن دوره إن لم يضارعه ويفوقه، ولا يعني أن تكون لها شخصية خاصة وتفكير مستقل، لا يعني أبدًا أنها تسعى إلى الانفراد بالقيادة، بل إنها تثبت وجودها وقدرتها على فهم الواقع والتعامل معه بما يقتضيه الحال.

كلام جميل!! أليس كذلك؟! إن هذا ما أتمنى أن يفهمه زوجي الذي يسعى إلى طمس شخصيتي وإلغاء تفكيري وابتلاع رأيي لتبقى له الساحة خالية يأمر فأنفذ، ويملي فأوافق ويفرض فأعمل دون سؤال ولا جواب ولا اعتراض.

على مدى سنوات حاولت أن أكون كما يريد، عجينة من صلصال يشكلها كيف يشاء يكورها أو يبسطها أو يبعثرها، لكنني عجزت أن أخالف فطرتي، استمرأت هذه التبعية البغيضة التي لم ترد في كتاب ولا سنة. طاعة عمياء، بل صماء وبكماء أيضًا في كل شيء لأحظى برضا السيد طاعة وخنوع أدت بي إلى الضجر والملل.

إن بعض الخلافات والاختلافات بيننا هي التي تفكه الحياة وتضفي عليها الحيوية، وتجدد الدماء في عروقها وتمنحها دفئًا خاصًا. نعم، كما تريد على طول الخط جعلت أيامي مملة، باهتة وشاحبة. أين ندى؟ لقد توارت خجلًا في ظل أحمد.

ننزل إلى السوق لنشتري ملابس، نعود وقد اشتريت الفستان الذي يريد. ليس بالضرورة أن يكون فستانًا أرتديه في البيت، بل هو فستان سهرة أو تايورًا للعمل قد لا يكون جميلًا كما أحب أن ألبس، أو لا يناسبني لونه ولكنني اشتريته لإرضائه فقط!! لأنني لو لم أفعل فسيغضب مني.

صديقتي ميساء ولدت بنتًا واشترى لها هو الهدية، بذوقه واختياره، قدمتها على استحياء لأنها لا تناسب مستوى علاقتي بها، قدمتها فقط لأرضيه!!.

صرت كجهاز يملكه يديره، بالريموت يتحكم فيه عن بُعد، يملي علي ما أقول للآخرين، ويحفظني حرفًا حرفًا حتى لا أنسى!! إذا سألتك نورة: لماذا لم تحضري حفلتها فقولي لها: إن زوجي كان على موعد مهم مع أصدقائه، لا تقولي: إنني لم أرغب في ذهابك فهمت؟ هاه ماذا تقولين؟ أعيدي علي!!.

كالببغاء أردد ما يقوله دون وعي بل بوعي وإدراك ولكنني مقهورة، أشعر أن من حولي يكذبونني في بعض الكلام فهو يتناقض مع الواقع الذي يعلمونه ولكني أفعل ذلك بناءً على رغبته وطلبًا لرضاه.

حالي معه، كحال القردة مع بائع الطرابيش، رأته يرتديه ففعلت مثله، ثم لما خلع خلعته، ولما رماه رمته دون أن تدري لماذا فعل ذلك إنها تقلد فقط بفطرتها وأنا أقلد رغمًا عني وحتى يقال لي كما يزعم إنني زوجة مطيعة لزوجها، وتسعى إلى رضاه.

لقد كبرت قليلًا، وضاق هذا الثوب علي، وكثرت المصادمات بيني وبين نفسي، فما عدت أحتمل أكثر، نداء من أعماقي بدأ يعلو، وحمم داخلي تنفجر، فكل الأمور لا بد أن تعود إلى طبيعتها مهما تراكم عليها من غبار السنين، هي جذوة خبت لكنها لم تنطفئ، إن لي دورًا مهمًا يجب أن أقوم به لم تفرضه علي أمي ولا العادات أو التقاليد بل شرفني به خالقي وهو سائلني عنه، وأنت اليوم تبني أساسه على شفا جرف هار وهذا سيكلفني الكثير، لذا فكرت أن أعود لحقيقتي، وأؤسس كياني لنمد أيدينا ونتصافح لا لنتصارع فنحن لسنا في حلبة ولا في غابة فالحياة بيننا مشاركة وتفاعل، فهيا هات يدك، فهذا ما سيحدث(*).

«زوجتك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

أخي أنت أب عاق

رغم فرحتنا بنجاح رقية وتخرجها من الجامعة إلا إننا لم ننس شيئًا واحدًا ظل يدق مجلجلًا معلنًا وجوده بيننا وفي أفئدتنا وعقولنا، إنها ابنة أخي الثالثة التي تتخرج من الجامعة وتبقى في البيت دون وظيفة ولا زواج، إنها ما زالت صغيرة ومطلوبة ولكن هناك شيء مؤلم ينخر عقلها وأخواتها ويقض مضاجعهن.

رقية وأخواتها، بنات أخي عبد الله حباهن الله من طيب المعشر وحسن الخلق وطلاقة الوجه وحلو الحديث، ما فُقْن به أترابهن، وإذ أرد الفضل لأهله فإني أذكر زوجة أخي بكل خير، فهي امرأة عاقلة رزينة ومن أسرة محافظة كريمة، كانت خير زوجة لـ أسوأ رجل نعم ومع الأسف إن أخي لم يكن يستحقها عن جدارة، لقد صبرت عليه كثيرًا وحاولت تقويمه وإصلاحه ولكنها عجزت وأسلمت أمرها لله الذي بيده مقاليد الأمور يقلب الليل والنهار سبحانه، واتجهت بكليتها لتربية أبنائها وحمايتهم من شر قد يدفعهم إليه أبوهم، فصارت توجه وتعلم، تغرس وتسقي، تحمي وتدافع عن هذه النبتات الضعيفة بكل قوتها مستمدة العون من الله. ملتجئة إليه في كل حين، تدعوه وتتضرع إليه أن يحفظ لها ذريتها وأن يجنبهم الذلل ويصلحهم لتراهم أشجارًا قوية ممتدة في وجه رياح الفتن والذنوب.

وأخالها الله ما تتمنى ولم يخب رجاؤها، وغدت البنات في أبهى حلة، نجيمات ساطعات براقات في سماء حياتها تتطلع إليهن فيزداد يقينها بقرب الله منها إذ لم يردها خائبة، فها هي غراس يديها تشب كأحسن ما يكون، طلعة بهية وخلق كريم، ولسان عذب ولكن هذا الطعام الشهي تحته بلل وفيه دخن، إنه والدهن الذي جلب لهم السمعة السيئة وتركهن يجترون آلامهن ويبتلعن غصصهن وراح يعربد ولا حول ولا

قوة إلا بالله حتى عُرف بين جيرانه بهذا، ولم يعد الأمر يخفى على أحد كما كان في السابق لقد كبرت البنات وبدأن يلفتن الأنظار ويسلبن الألباب مما عجل بكشف الحقيقة، بكل قبحها ومرارتها.

كلما تقدم خاطب، وأخذت الأمور مجراها الطبيعي وبدأت الفرحة تعمر القلوب فجأة يتحطم الأمل ويقضي على بذور السعادة التي كادت أن تتفتق وينشر الظلام والحزن.

نحن لا نلوم الخاطبين فربما لو كنا مكانهم لما تغير موقفنا عن موقفهم، ولكنا نتساءل بحرقة، ما ذنب هؤلاء البنات؟ ولماذا يؤاخذن بجريرة أبيهن؟ إن حسن سمعتهن وكريم أدبهن هو الطابع الذي يختم علاقاتهن مع الآخرين، وهو أول انطباع يتركن في نفوس من يتعامل معهن، فوالدتهم احتضنتهن صغارًا وأحاطتهن برعايتها، وبحكمتها أنشأتهن في معزل عن هذا الجو الموبوء.

كم يؤلمني حالهن وأنا أرى في عيونهن ألف تساؤل تعقبه ألف حسرة، وكأنهن يصرخن من أعماقهن: ما ذنبنا؟ نحن لسن راضيات عن فعل والدنا ولكن قدرنا الذي كتبه الله لنا؟ علينا الدعاء له والإحسان إليه ولا نملك سوى ذلك.

إن الحقيقة كالشمس التي وإن غابت يومًا أو حجبتها السحب فلابد أن تظهر ساطعة قوية تؤذي بنور شعاعها أعين الجبناء الذين يحاولون إخفاءها أو الهرب من وهجها لأنها تكشفهم وتعري زيفهم.

إننا لم نعد نستطيع أن نخفي شيئًا، وبتنا عاجزين عن إخراس هذه الألسنة الحادة التي تتكلم بالسوء، الذي هو الحقيقة المرة، لقد أصبح مألوفًا أن يعود أخي إلى بيته قبل الفجر وهو لا يعي ما يقول، قد أذهب الخمر عقله، وطمس تفكيره، إن محاولات الإصلاح الكثيرة لم تنتج شيئًا، لعل الله لم يرد هدايته بعد.

إنني أخاف على البنات من الفتنة وأدعو الله لهن في كل صلاة، إن البنات يكبرن كالزهرات المتفتحة سرعان ما تبذل ويزول بريقها، وكالشمعة المتقدة سرعان ما تنطفئ ويذهب وهجها فيصبحن كالثمار الخاوية الضعيفة لا يستفيد منها أحد ولا يلتفت إليها أحد.

أما أنت يا أخي أيها الأب العاق اسمح لي أن أقول لك: إنك لا تستحق أن تكون أبًا فكيف بك أب لهؤلاء البنات اليانعات، إنك تقف حجر عثرة في طريق سعادتهن، وجدارًا يحجز عنهن الخير.

إن الأب الذي لا ينفك عن شرب الخمر ولا يعرف طريق المسجد، ولا يقوم بمسئوليته لن يطرق بابه أحد، وسيأتي اليوم الذي تخسر فيه كل شيء وربما تفيق من سكرتك فلا تجد أحدًا تستند إليه فارجع إلى رشدك وفكر في حال بناتك الضعيفات من لهن سواك، بعد الله.

وأنتن يا بنات أخي عليكن بالدعاء.. عليكن بالدعاء.. فقد يأتي الفرج من حيث لم تفكرن، وقد يسوق الله إليكن رجالًا صالحين يدركون أنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن الله يخرج الحي من الميت، حماكن الله من كل سوء(*).

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

ارفع وصيتك عن ابنتي!!

في محاولة لإضفاء جو من الود وإشعارهم بأهميتهم ألححت على ابنتي أن تخبر أهل زوجها السابق - يرحمه الله - بأمر زواجها، حتى يكونوا على علم بوضع أبنائهم وأنهم في أمان - بإذن الله - ما داموا معها، فكانت الطامة التي زلزلت كل شيء، وأفسدت عليها فرحتها بالاستقرار.

لقد رفضوا رفضًا قاطعًا، وانبرى أخوه الأكبر للحديث: لن يعيش أبناء أخي في كنف رجل غريب، لقد حان الوقت لأخذهم ليشبوا مع أبنائنا في جو من التكافؤ الاجتماعي، فهم أبناء عائلة واحدة، وعاداتهم واحدة.

الآن؟! أين كنتم في الماضي؟ لم تفكروا في أخذهم حتى للزيارة فقط؟ لم تتفقدوا حاجتهم كما ينبغي، لم تشعروهم قط أنكم أهلهم، وملاذهم بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هل نسيتم تلك الأيام المحلة الثقيلة وتلك الإجراءات الطويلة التي كانت تتطلب ورقة أو بطاقة أو توقيعًا منكم لتنهي حاجة المحكمة، وينتهي معها مسلسل الإرث الطويل. هل نسيتم كيف تماطلون وتتأخرون وتتعذرون حتى حفيت الأقدام وشابت الرؤوس؟ إن كنتم نسيتم فإنها لم تنس لقد عاشت المعاناة بوجهيها.

ماذا كنت تنتظر من حديثك هذا؟ أن تسلمك أبناءها أم تسلمك شيئًا آخر؟ هل كنت تظن أنها ستفرط في أصبع من أصابعهم؟ لقد مكثت سنين عددًا ترقب نموهم خمس سنوات حتى أتم أصغرهم عامه السادس وهي تحافظ عليهم بحول الله وقوته من نسمة الهواء الباردة، أو لفحة الشمس الحارقة، خمس سنوات لم يغيبوا عن ناظريها طرفة عين، عرقت ليتدفئوا، وتعبت ليصحوا، واختنقت ليتنفسوا.

obeikandl.com

الآن أصبح لهم أعمام؟ ثم أين هذا العم الذي يتحدث الآن طوال تلك السنوات؟ لم لم يسأل عنهم؟ لِمَ لم يفكر بحضانتهم؟ يريدهم الآن ليكونوا خدمًا لزوجته وأولاده؟ وحتى لو لم يكن ذلك، فلن نتخلى عنهم ما دام فينا عرق ينبض؟.

لقد ذهب العريس إلى غير رجعة، رعونة هذا العم أفقدت ابنتي حياة جديدة لقد خافت أن ينفذ معها تهديده، ويأخذ الأبناء في ليلة مقمرة وهي تنظر.

عافت الأزواج، ومرت فترة ليست بالقصيرة، كل فيها الوسطاء لثنيه عن عزمه وتهديده، ولإفهامه حقيقة واحدة أنه ليس وصيًا عليها. وأن حياتها ملك خاص بها، وأنها قبل أن توافق على الزواج حاولت الحصول على جميع الضمانات التي تكلف لأبنائها حياة كريمة وكفى بالله وكيلًا، ثم إن هذا ليس الخاطب رقم واحد بل هو الرجل المناسب. لا أدري لماذا ثارت ثائرتهم؟! هل يريدون أن تدفن نفسها حية في عز شبابها؟ إن ابنها البكر لم يتجاوز العاشرة، وهي لن تتركهم عندنا ولا عند خادمة، لقد جعلتهم شرطها الأول في القبول بأي خاطب، فخطواتهم في بيتها الجديد يجب أن تسبق خطواتها.

هدأت الأمور نوعًا ما، وبدأت زينة تصرف النظر عن فكرة الزواج بعد أن جهدت في إقناعها، ليس رخصًا بها ولا مللًا منها. ولو كانت البنات يتزوجن لملل منهن لما تزوجت زينة أبدًا فهي عطر البيت وعبيره، الحبيبة اللبيبة، الأثيرة عندي وعند والدها، ولكني كنت أتأمل حالها بكثير من الأسى، شابة لم تبلغ الثلاثين من عمرها، وهبها الله من فضله الجمال والنضارة وكتب عليها أن تترمل وهي صغيرة لتحنو على ثلاثة أيتام صغار كأفراخ العصافير حتى احدودب ظهرها ومال كما تميل الشجرة إلى ناحية واحدة بظلها.

لما رأيتها بهذا الحال أشفقت عليها ورأيت أنه قد حان الوقت لتلتفت إلى نفسها وتنظر في حياتها، فالصغير قد كبر، ولا بد لها من سند بعد الله سبحانه يعينها ويقف إلى

جانبها ويشعر الأولاد أنه مثل أبيهم، فهي ما زالت صغيرة ومرغوبة، ولم أصدق نفسي حين علمت بموافقتها واقتناعها خاصة أن الخطاب ما زالوا كثر، وبإمكانها التفكير بتمعن وتروٍّ وكدت أطير من الفرح وافقت على هذا الأخير ولكنها فرحة لم تكتمل، بترها هذا العم بتهديده ووعيده.

إنني على يقين أنهم جميعًا لا يخافون عليها، بل يخافون على إرث أخيهم أن يتبدد أو يأكله ولد الناس يريدونها أن تبقى حارسة لهذا المال مغلقين عليه في صندوقه لا تتمتع به ولا أولادها، بحجة أنهم ما زالوا قصرًا لا يحسنون التصرف في مالهم.

أو أنهم يغارون على حرمة أخيهم رَحِمَهُ اللَّهُ من أن يكشفها غريب هذا وإن صح، فأين هم لما ترملت وتحسرت لم يحتووا ألمها وحزنها، ولم يكفلوا أبناء أخيهم ويحفظوا حرمته.

أرجوكم كفوا عن الوقوف حجر عثرة في طريق سعادتها، دعوها تحيا حياتها الجديدة، وتنفض عنها غبار السنين الصدئة، إنكم مهما فعلتم فلن تمنعوها عن شيء من خاصة حقوقها، فلنبق حبل الود والوصل فهو الذي دفعنا لإخباركم فلا تقطعوه وتقطعوا معه رحمكم حفظكم الله(*).

«والدتها»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

المعجزة الإلهية

هذه القصة حدثت بالفعل في مصر وتم عرضها في التليفزيون المصري في برنامج خلف الأسوار.

سيدة توفي زوجها وهى في الشهور الأولى من الحمل وكانت لديها منه ابنة في الرابعة تقريبًا من عمرها وعندما اقتربت الولادة شعرت السيدة بأنها قد يتوفاها ملك الموت أثناء هذه الولادة فطلبت من أخيها أن يراعي بنتها والمولود الجديد في حالة وفاتها، ويبدو أنها كانت شفافة الروح وكانت تشعر بما ينتظرها من مجهول وعندما دخلت المستشفى لإجراء عملية الولادة توفاها ملك الموت في الوقت الذي رزقها الله فيه مولودًا لها وبعد أن قام الأخ بدفنها عاد إلى بيته ومعه بنت أخته الصغيرة والمولود الجديد وإذا بزوجته تثور في وجهه وتخبره أنه إما هي أو أبناء أخته في البيت فقام هذا الخال للأبناء والعياذ بالله بالتوجه ليلًا إلى المقابر وقام بفتح قبر أخته ووضع المولود في القبر وعندما أراد أن يضع الطفلة الصغيرة فبكت فقام بإعطائها (شخشيخة) وقال لها: إذا بكى الطفل قومي بالشخشخة للطفل وقال لها: أنا سوف أحضر لكي يوميًا الطعام ثم أغلق القبر وانصرف.

وفى صباح اليوم التالي وأثناء مرور التربي بجوار القبر فسمع صوت شخشيخة داخل القبر فخاف رعبًا وانصرف على الفور ثم عاد مرة أخرى في اليوم التالي فسمع نفس الأصوات للشخشيخة فانصرف على الفور من الخوف وظل يفكر ماذا الذي يحدث داخل هذا القبر؟ ولكنه لم يذهب إليه فترة طويلة قاربت الخمسة عشر يومًا ثم عاد ومر من جديد ليسمع نفس الصوت فذهب وأحضر مجموعة من الأشخاص وعرض عليهم الأمر فتوجهوا معه إلى القبر وهناك سمعوا بالفعل أصوات الشخشيخة

فقاموا بفتح القبر وهنا كانت المفاجأة التي تتزلزل لها الأبدان الطفلة والمولود أحياء بجوار جثة الأم فقاموا بإبلاغ الشرطة والنيابة العامة والطب الشرعي وبسؤال الطفلة عما حدث فروت لهم ما حدث من خالها فسألوها وكيف قضيتي تلك الفترة وأنتي ما زلتي على قيد الحياة وبدون طعام ولا شراب أنتي والمولود الصغير فأجابت: كنت عندما يبكى أخي أقوم بالشخشخة له فتقوم أمي من النوم وترضعه ثم تنام مرة أخرى وعندما أشعر أنا بالجوع كان يحضر لي (عمو لا أعرفه) يلبس ملابس بيضاء ويعطيني الطعام وينصرف وبسؤال طبيب الطب الشرعي عن حالة الجثة عندما أخرجوا الطفل والطفلة فأجاب أن جثتها دافئة كما لو كانت على قيد الحياة وليس بعد مرور عشرين يومًا على دفنها فسبحان الله تعالى وعلى الفور قامت الشرطة بالقبض على هذا الخال الآثم قلبه ووجهت له النيابة تهمة دفن طفل وطفلة أحياء.

❀❀❀

obeikandl.com

حب الظهور وتلميع الصورة!!

لا أظن أحدًا يتفوق على خالتي رحاب في حب الظهور وتلميع الصورة وتضخيم الذات، حين أسمعها وهي تتحدث عن نفسها أو عن حياتها أو أولادها أظن أنني أمام أعظم امرأة في العالم، فهي نسيج وحدها وفريدة عصرها.

تسعى دائمًا لمدح نفسها والثناء عليها، وعلى كل ما يتعلق بها وتدعي زورًا أشياء ليست عندها ولا تستطيع فعلها لتبهر من حولها بحلو حديثها وجمال صورتها، ولكنها تناست أن هذا الإبهار كان في الماضي فقط، أما الآن قد انكشفت حقيقتها عندنا ولم يعد لكلامها ذلك التألق وتلك الجاذبية، بل صار مملًا ممجًا ويدعو إلى السآمة والضجر، إنها أحيانًا تثير شفقتي وكما قيل من كثر من شيء سمج.

خالتي العزيزة: هل نسيت أن للناس أعينًا وآذانًا، وأنهم ليسوا بهائم لا يميزون وأنه لم يعد يخفى من أمرك شيء عن المحيطين بك.

بالأمس تقولين: إنك لا تحبين أبدًا التعامل مع أبنائك بطريقة قاسية وفجة. وإن الكلام البذيء محرم في قواميسك!! وإنك ترثين لحال أولئك الأولاد الذين ابتلوا بأمهات بذيئات الألسنة!!

واليوم أسمعك مرات عدة تنادين أحد أبنائك بما يترفع القلم عن تحبيره وتنعيتهم بأخس الحيوانات، سمعتك تقولين ذلك في الهاتف مرات ولم يكن الأمر يستدعي فورة غضب أو قذف شتائم!.

عجبي لك حين تدّعين أن بناتك من خيرة البنات خلقًا وأدبًا وتقولين: إنهن في الولائم التي يقيمها والدهن يجهزن مائدة عامرة بأطيب الطعام تضاهي أرقى المطاعم،

وأن الضيوف دائمًا ما يتساءلون عن اسم المطعم الذي أحضرتم منه العشاء، وإنهم يتعجبون ويذكرون الله!! حين يعلمون أن هذا البوفيه الراقي من صنع بناتك!! سبحان الله إن هذا إلا أفك مبين! إننا لم نتذوق مرة واحدة طبقًا من صنعهن بل إنهن بشهادة الجميع لا يفرقن بين المقلي والمشوي، وذات مرة همت إحداهن بتقطيع الملوخية في السلطة ظنًا منها أنها بقدونس.

أما الخلق والأدب فلا داعي لذكر المواقف التي تثبت سلاطة ألسنتهن وقلة أدبهن وخاصة مع من هنَّ أكبر سنًا أو مع من يوجه لهن نصيحة!! فلماذا كل هذا التلميع الزائف؟ هل كنت تظنينًا صمًا عميًا؟.

لقد أمسكت رأسي بين كفي حتى لا يطير غيظًا، حين اعتذرت من زوجة عمي التي دعتك لزيارة أختها مدعية أنك لا يمكنك بحال من الأحوال أن تتركي أبناءك الصغار مع الخادمة، وأنك لم تعتادي ذلك!! وأن قلبك يظل معصورًا وأعصابك مشدودة!! ولا تهنأين برؤية أحد ولا حتى بلقمة حتى تعودين إلى البيت في أسرع وقت وتدعين أنك كثيرًا ما تعودين إلى البيت بعد ذهابك بنصف ساعة لأنك لا تأمنين بقاء الصغار مع الخادمة!!.

كيف تقولين ذلك في حضورنا وأنت تعلمين جيدًا أننا نعرف أن هذا كذب ومحض افتراء، أنت تريدين أن تظهري أمام زوجة عمي تلك المرأة الفاضلة والمربية القديرة بمظهر الأم الرءوم التي لا تكل أبناءها إلى الخادمة.

أين إذن تتركين أبناءك حين تدورين مع جاراتك في دورية لا تبدأ إلا بعد المغرب، وفي كثير من المناسبات والحفلات الليلية التي تحضرينها مع بناتك أين يكون أبناؤك الصغار؟ وأثناء الساعات الطويلة التي تقضينها في السوق أو في زيارة صديقاتك لا يكون الأبناء معك، هل نسيت؟ إذن سأذكرك: في مرة رافقتك إلى السوق

وكان هاتفك لا يكل من الرنين يرجونك العودة إلى البيت لأن الصغير يبكي من الحرارة والألم، هل فكرت بالعودة بسرعة؟.

لقد طلبت منهن إعطاءه دواء مسكنًا للحرارة وأن يخففوا ملابسه وأن تحمله الخادمة وتهدهده حتى يسكن، ثم قضيت ما يقارب الساعتين في السوق، وتحت إلحاح مني قررت الرجوع إلى البيت، فكثرت اتصالاتهم سدت نفسي عن التسويق وأنت تدخلين كل محل وتقلبين كل بضاعة وكأن أمر الصغير لا يعنيك؟.

إنني على يقين أنك لم تعتذري لزوجة عمي عن الحضور إلا لسبب قاهر في عرفك، إما أنك لا تملكين فستانًا جديدًا، أو أنك مرتبطة في حفل آخر، أو أن مستوى حفلهم لا يناسبك.

عجبي لك يزداد وعجبي منك كيف تكذبين وتتشبعين بما ليس عندك وأنت في سن يفترض فيها الرشد والعقل والنضج؟! إن الكذب ذنب عظيم قد يختم لك به وتكتبين عند الله من الكذابات فلماذا تزيدين عليه هذا التشبع الفارغ والادعاء البغيض؟!! لماذا لا تتركين أفعالك تتحدث عنك، وتجعلين الآخرين هم الذين يكتشفونك، ويكونون مرآة ترين فيها صورتك الحقيقية دون تزييف ولا تلميع ولا تضخيم.

نحن لم نسألك يومًا عن بناتك ولا عن الأسواق التي ترتادينها ولا عن السفرة التي تجهزينها كل يوم والتي يثني عليها زوجك، فلماذا تحبين الحديث في هذا كثيرًا، لقد مللنا الكذب ومللنا تزكية النفس، وظهرت الصورة الحقيقية عارية من كل البهارج، فاحفظي لسانك وتأملي عيوبك رعاك الله(*).

«ابنة أختك»

(*) مجلة «الدعوة».

العيش في ظل التوبة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ [القَصَص: ٦٧]، هذه الآيات عظيمة فهي تتحدث عن التوبة ولأن التوبة أمرها عظيم فإني سأخصص هذا الدرس للحديث عنها وعن شروطها وعن أهليتها... فباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها.

بهذه الكلمات القليلة بدأت معلمتي الحديث، لا أعلم ما الذي دفعني للإنصات إليها بعمق، فهي ليست عادتي إذ لا تستهويني هذه المواضيع البتة، بل تجلب لي النعاس فأجدها فرصة لأغط في نوم عميق لا يوقظني منه إلا صوت الجرس أو صديقتي التي تعلمني بانتهاء الدرس أو المحاضرة التي تقام في مدرستنا بين الحين والآخر.

أنصت بكل جوارحي وأخذتني عذوبة صوتها وصدق عاطفتها وهذا الصدر العظيم من الشفقة في ثنايا حديثها، الأجر، الصبر، الحسنات، السيئات، الجنة، النار كلمات سمعتها كثيرًا لكنها لم تجبرني على الوقوف عندها مثل هذه المرة، فأصابتني رعدة سرت في جسدي كله وانتفضت على أثرها فزدت انتباهًا، أدرك أن رحمة الله ولطفه بي وراء ذلك كله فهذه ليست المرة الأولى التي أجبر على سماع مثل هذا الحديث خاصة في المدرسة، ولكن الله سبحانه أراد لي الخير فساقه على لسان هذه المعلمة فله الحمد.

دق الجرس إيذانًا بانتهاء الحصة الأخيرة وخرجت المعلمة وتبعتها ببصري وشرد ذهني، ليت الزمن توقف عند تلك اللحظة التي ختمت فيها حديثها بتلك النصيحة الثمينة بتقوى الله وطاعته في كل حين، ليتها ظلت تتحدث دون انقطاع لقد صادف غيث حديثها أرضًا عطشى شربت الماء وارتوت جذور إيمانها الميتة في أعماقها فعادت إليها الحياة واهتزت وربت.

رميت حقيبتي على كتفي وسرت بتثاقل، جذبتني صديقتي وغمرتني أخرى وبدأن يطلقن التعليقات وأنا في انصراف عنهن أسبح في عالم آخر وأحلق في فضائه أقلب النظر في أمري وأبدأ في تقييم نفسي: ماذا لو جعلت لي درجة من عشرة في كل عباداتي وسلوكي؟ ترى كم سأكسب؟ الصلاة صفر من عشرة، الصدق صفر من عشرة، والأمانة صفر من عشرة، وبر الوالدين صفران من عشرة. يا إلهي ما أفظع حالي!! إنني في الحضيض أرقد في قذارة الدنيا ونتنها!! متعتي مع ثلة من الصديقات التافهات أمثالي ننتشي طربًا لفوز فريقنا المفضل ونتبادل أشرطة الغناء المصورة بفرح، ونتابع المسلسلات ونحتفظ بصور الفنانين والفنانات. ونستمتع بهمز المعلمات والانتفاض من قدرهن والسخرية بالزميلات ورميهن بالألقاب السيئة ولا يكتمل أنسنا إلا بالوقوف في آخر الفصل أو سماع عبارات اللوم والتقريع من المعلمة على إهمالنا الواجب أو رسوبنا في الاختبارات!!.

وصلت إلى البيت في جو من الذهول عما حولي، اغتسلت مباشرة وبحثت عن سجادتي التي كثيرًا ما أهجرها، وصليت صلاة ناجيت فيها الله واستغفرته كثيرًا ثم بكيت ونمت كأن ذلك اليوم بداية التحول في حياتي من فتاة جامدة كالثلج، قاسية كالصخر إلى فتاة مفعمة بالحيوية والنشاط، متدفقة بالحب والعاطفة، مقبلة على الله بكل جوارحها.

استيقظت واتجهت فورًا إلى والدتي وقبلت رأسها وسألتها أن تدعو لي كثيرًا، فهي لم تر مني خيرًا قط، أجادلها في كل شيء ولا أعيرها اهتمامًا، لا أجلس معها ولا أحادثها ولا أساعدها في عمل البيت أتذمر حين تطلب مني شيئًا بينما أريدها أن تجيب لي كل طلباتي، ووالدي الذي هو في نظري خزانة نقود أفتحها لآخذ منها حاجتي ثم أغلقها ولا أعود إليها إلا حين الحاجة بدأت أتودد إليه وأجلس معه وأسأله عن حاجته أعد له

الشاي وأكوي له ثيابه، وأنا أحاول أن أتقن ذلك حتى أرضيه، فحق الوالدين عظيم وهو مقدم على الجهاد في سبيل الله.

لقد وجدت صعوبة في بادئ الأمر ولكني قسرت نفسي على هذا وعودتها عليه وألزمتها به حتى اعتادته وألفته وهان عليها عمله. لقد تفقدت أعمالي الأخرى، الصلاة عمود الدين صرت أسعى لها باكرًا، وأتجهز قبل الأذان وأجلس في مصلاتي أدعو الله أو أقرأ القرآن حتى يؤذن، كما كانت صلاتي تشكو حالها معي التقصير والهجران أو التأخير والنسيان وفي أحسن الأحوال كنت أنقرها كنقر الغراب كأنما أمنّ بها على الله؟.

وحاجبي كان له نصيب من التغيير فقد عاد إلى مكانه الطبيعي وتربع فوق رأسي ثانية كالتاج ألف به عفافي، ولقد سخرت مني زميلاتي لكن تراجعن ولذن بالصمت المر حيال ثباتي وصمودي.

أشياء كثيرة كانت تحتاج إلى تغيير، وذنوب أكثر أسرفت فيها على نفسي، عالجتها بالتوبة وصدق اللجوء إلى الله وكثرة الدعاء والإلحاح في المسألة حتى وجدت لذلك أثرًا فاستطعت بحمد الله أن أهذب أخلاقي فنبذت الكلام البذيء وتركت السخرية بالآخرين وأرغمت نفسي على احترام من هم فوقي وعاهدت نفسي على الصدق وبدأت في إشاعة جو من الود معطر بالحب والاحترام في بيتنا لأرى والديَّ ما كان يحلمان به في ابنتهما الكبرى فكان من نتائج ذلك أن استجابا لي وأخرجا هذا الطبق الخبيث المتربع في سطح بيتنا فالحمد لله أولًا وأخيرًا.

ما ألذ التوبة، وما أحلى الرجوع إلى الله، فرق بين حياة تعيش فيها لشهوتك وحياة تعيش فيها لربك وخالقك حياة عابثة لاهية ليس فيها هدف ولا غاية، وحياة تضبط فيها حركاتك، وسكناتك، وفق هدف محدد وغاية عظيمة ألا وهي رضا الله سبحانه. لقد ظفرت براحة القلب، ورضا الوالدين، واحترام الآخرين فما أجمل العيش في ظل التوبة.

صاحبة الأمر والنهي ضيفة!!

كنت أسمع والدتي تقول دائمًا، اللهم لا تكلنا إلى أحد من خلقك، وتردد على مسامعنا أن الحاجة إلى الناس مذلة، ففهمت أن الإنسان يصبح ذليلًا حين يحتاج إلى الآخرين، لأنه لا بد أن يتصنع لهم ويداريهم ليظفر بحاجته، وتعلمت من والدي أن أحسن إلى الناس حتى استعبد قلوبهم، وآمن شرورهم، ونشأت على هذا الخلق الجميل أنا وإخوتي، فعاشت بيننا عمتي عزيزة كريمة، كانت أثيرة والدي، وربتنا أمي على احترامها، فهما قد عاشتا تحت سقف واحد سنوات عديدة.

حين يحدث بينهما خصام كانت والدتي تحرص ألا نرى وجهها، فإما أن تبقى في غرفتها حتى يزول ما في نفسها، أو تذهب إلى بيت جدي، وهي ترينا دائمًا ألا شيء يستحق الذكر، لذا كبرنا ونفوسنا صافية تجاه عمتي، لم يعكر ماء حبنا لها شيء.

عمتي ذاقت اليتم صغيرة، فصار والدي كالأب لها بالرغم من أن الفارق العمري بينهما لم يكن كبيرًا، فعاشت في كنفه كالبنت تحت جناح والدها، وعاملتها والدتي خير معاملة مثل أختها تمامًا، ولكن هل تستحق عمتي كل هذا الاحترام؟ عفوًا، فالحقيقة لا يمكن إخفاؤها، والشمس لا يحجب ضوءها الغربال.

لقد صارت عمتي هي الآمرة الناهية في البيت، وكلمتها هي النافذة، ولا يمكن لأحد أن يعترض على حديثها، أو يراجعها في قرار اتخذته.

قررنا السفر في الإجازة ورسمنا الخطة واقترعنا على الوجهة التي نريد، فلما جاء جور عمتي رفضت الفكرة أصلًا، وأفسدت علينا الاستمتاع بالإجارة، هي تعلم أننا لن نسافر بدونها، ونحن نعلم ألا أحد من زوجات أعمامي ترغب في بقائها عندها، وهي لا تحب الجلوس عندهم، ألأجل زواج أخت صديقتها نبقى في هذا الجو ننكوي بناره؟

عمتي لم تتزوج، لم يكتب الله لها نصيبًا، وفاتها القطار، وكان هذا إيذانًا بالإقامة الدائمة، وهو يعني المزيد من الرعاية والاهتمام منا لها. هي تدرك مدى حاجتها لوالدي، والحاجة تذل ومع ذلك لم نر منها تذللًا لوالدتي أو زيادة احترام لها، ولا عرفانًا لفضلها.

ذات يوم رن هاتفها المحمول، ربما أنها نسيت موعدًا مهمًا مع صديقتها التي اتصلت لتذكرها به، سألت عن السائق فأخبرتها أنه يوصل والدتي في زيارة لإحدى قريباتها، غضبت ثم اتصلت بوالدتي على هاتفها وأمرتها أن ترسل السائق حالًا لأنها على موعد مهم لا يمكن تأجيله، فما كان من والدتي إلا أن قطعت زيارتها وعادت إلى البيت لأنها تعلم حين يذهب السائق بعمتي متى يعود؟

هي تنتظر منا التضحية والبذل بينما لا تفعل هي الشيء ذاته، في العام الماضي وقبل الاختبارات بقليل وضعت أمي مولودًا جميلًا اختلفنا في تسميته؟، فجعل والدي أمر التسمية لعمتي، فأسمته وسط جو من الفرح والسرور، فهل قدرت هذا لأمر وأظهرت روح التعاون والمحبة؟ هل قامت بخدمة والدتي في هذه الفترة العصيبة؟ حسنًا لن أقول خدمتها، فهناك خادمتان، ولكن هل كانت موجودة في البيت وقت تواجد الضيوف؟ إنها تخرج في زيارات لبعض صديقاتها، أو تنزل إلى السوق، أو تتحجج بزيارة لخالتها المريضة، أو لديها موعد عند طبيب الأسنان، ومرة أو اثنتان فقط التي بقيت فيهما في البيت لتقابل الضيوف.

وهذا ليس انطواء أو عزلة ولكنها لا تحب أن يفرض عليها شيء، أو تشعر أن هناك أوامر تصدر من فوق، هكذا هي تفسر الأمور. لماذا تتصرف عمتي بهذا الشكل؟ أعلم أن هذا هو طبعها، السيطرة والاستبداد، ولكن أيعقل ألا تنكسر حدة طباعها. ولا تذل نفسها؟ وهي تعيش ذل الحاجة؟

عمتي تجاوزت الأربعين، وهي وحيدة لا أم ولا أخ ولا أخت؟ وهي أيم لا زوج ولا ولد، وتعيش عند أخيها وزوجته، فهي كما يقول الناس عالة عليهم وأنا وإن كنت لا أقر بهذا الكلام إلا أنه واقع يجب القبول به.

أعوذ بالله أن أشمت بعمتي أو بأحد من الناس، فكل واحد معرض لأن يعيش في ظروف أسوأ ولكني أردتها أن تعرف حقيقة غابت عنها في خِضَم هذا الدلال كله، وهي أن عليها أن تقبل اليد التي مدت إليها المعروف، وأن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تعرف الفضل لأهل الفضل، فبالشكر تدوم النعم، أبقاك الله مرفوعة الهامة، ناصعة الجبين يا عمتي الغالية(*).

«ابنة أخيك»

قال رسول الله ﷺ: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**».

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

تجربة واحدة لا تكفي!!

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، تتمسك أختي جهلًا بحديث رسول الله ﷺ حين تؤكد رفضها تكرار تجربة الزواج مرة ثانية فهذا الحديث هو حكمتها المأثورة.

سبع سنوات مضت على طلاقها من زوجها الأول وهي ما زالت متمسكة برأيها مقتنعة بما آل إليه تفكيرها راضية بحالها. لم تجد معها كل محاولاتنا المستميتة لثنيها عن هذا القرار وكأنما انطبعت في ذهنها صورة قاتمة ومؤلمة لتلك الحياة.

أنا لا أنكر أن تجربتها الأولى كانت مرة بمعنى الكلمة، ولكن هذا لا يعني أن تنسحب تلك الصورة على جميع الحالات، لقد باتت أختي تترصد لكل خطأ من كل رجل لتجعل منه حكمًا عامًا يشمل جميع الرجال بالغلظة والفظاظة، وكل موقف جميل لا يعدو كونه حالة استثنائية.

كان زوجها قاسي القلب، غليظًا في تعامله معها لم تهنأ بتلك اللحظات الجميلة الحالمة حتى في أسابيع عرسها الأولى، كانت عروسًا مكتئبة، شاحبة الوجه، شاردة الذهن، قليلة الحبور، لم تستطعم طفرة العرس. في البدء كان يخرج ليسهر مع أصدقائه ويتركها في الشقة وحيدة، خائفة، لم يكن في شقتها هاتف تقطع به الوقت، ولا تعرف واحدة من الجيران لتسمر معها، ولما كانت تعاتبه كان يرد عليها بصفعة تدير رأسها!!.

ثم صار يخرج في الصباح والمساء الساعات الطويلة دون أن يعلمها لوجهته فتجلس تنتظره قد يأتي وقد لا يأتي إلا وقد أتم سهرته. كان بخيلًا بشكل لا يطاق، لم تحتمل حساباته الدقيقة، ولا عيش التصحر الذي كان يمن به عليها، كانت لا ترى ابتسامته أو أسنانه بارزة إلا آخر الشهر، فهو قسرًا يأخذ راتبها!!.

كم من المرات تلقت عتابًا من مديرتها التي تتفهم وضعها لتأخرها في الحضور صباحًا أو تغيبها عن المدرسة بغير عذر بسببه هو، كانت مثال المعلمة المخلصة الجادة في عملها الناصحة لتلميذاتها قبل الزواج، فصارت محل تندر زميلاتها وتهكمهن، تلك كانت صدمة قوية جعلتها ترفع رأسها لتنظر حولها جيدًا وتقرر أين تضع قدمها في الخطوة التالية، وذلك بعد أن تميزت معالم حياتها معه وسدت كل الطرق المفضية إلى الاستقرار، فكان أن وضعت قدمها في بيت والدي وثبتت خطواتها، وأغلقت كل نافذة للحوار حول الزواج، وسمته ماضيًا لا يعود، وحدث لن يتكرر!!.

وبدأت تبني حياتها وتؤسس لمستقبل آخر تعيش فيه وحدها دون شريك ينغص! أو رقيب يدقق! كما تقول. تلك التجربة الأليمة بقيت نقطة سوداء ترمي بظلالها على جوانب عدة من حياتها لكنها لم تضعفها أو توهنها، بل زادتها صلابة وعنادًا.

لم ترضخ لتوسلات أبي وأمي، ولم تستمع لنصحي ولم تأخذ بتجارب صديقاتها ومشورتهن صارت لا تسمع إلا النقد، ولا ترى إلا العيب، ولا تفقه إلا الذم ولا تتحدث إلا عن أخطاء الرجال وتجاوزاتهم ولو سمعت قصة واحدة أو موقفًا سخيفًا عممته على الجميع دون استثناء تقول كل الرجال هكذا.

حين تزوجت لم تكن صغيرة حتى يقال: إن هذا رد فعل بسبب طيشها وصغر سنها!! ولم تكن أولنا زواجًا، وإنما أقبلت على الزواج بذهن مفتوح على حصيلة لا بأس بها من النماذج الحية من حولها!.

لا أعرف حقيقة ماذا أقول عنها، ولكني أرثي لحالها وأشفق عليها، وأحيانًا أغضب منها وأخاصمها إنها لا تريد أن تفكر، ولا حتى أن تسمع أي شيء عن أي خاطب كلهم سواء أنتم تعرفون رأيي مسبقًا وكفى!! ونعود خائبين.

أختي.. وصديقتي.. وتوأم روحي: اسمعي مني هذه المرة نحن جميعًا نقدر تلك المعاناة التي عشتها، وندرك أنك ابتليت بمن لا يعرف لك قدرًا ولا يستحقك!! ولكن انظري جيدًا هل أصابع يدك واحدة، إخوانك هل هم سواء؟ نعمان طيب القلب تذيبه دمعة، وناصر صارم في غير باطل، ورزقه الله زوجة تكسر حدته، انظري إلى والدي كيف تقاسم الحياة مع والدتي لم تقف الطبائع المختلفة حائلًا دون توافقهما.

حقًا لا بد في الحياة من مصاعب ومتاعب، والبيوت مبنية على الستر والصبر، وتجربة واحدة ليست كافية لنبني عليها قواعد ونؤسس أسسًا، ومن يدري لعلها كان الصبر الذي يجب أن تعلقيه لتبلغي المجد، أو لعلها كانت تجربة قاسية لتقبلي على ما بعدها بنفس خبيرة ثابتة الجنان: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

إنني أهمس في أذنيك أنك ستبقين ناقصة تحتاجين إلى نصفك الآخر ولو كابرت أو عارضت الآن فإن مصيرك إلى أن تعيشي شقًا ضعيفًا يبحث عن الأمان، اسألي أولئك النساء اللاتي فاتهن قطار الزواج مع من يعشن؟ وكيف يشعرن؟ وعلى أي شيء يندمن؟ ثم توجهي إلى الله بالدعاء لينير دربك ويزيل الغشاوة عن قلبك ويريك الحق ويرزقك اتباعه(*).

«أخنك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

شتان بين إحسانها وإحسانهم

نحتاج بين الحين والآخر أن نتحدث عن البر، ما هو مفهومه؟ وماذا يعني عند الأبناء؟ بعض الأبناء حين يغدق على والديه الهدايا ويمنحهما العطايا ويحسن إليهما بلطيف العبارة وكريم المعاملة يرى أنه امتطى صهوة البر وارتقى قمته، إنه لا يرى إلا ما يعطي ولا ينظر إلى ما يأخذ.

أختي أم عاصم طيبة وحنونة وشفوقة على أبنائها، ربتهم وعلمتهم وسهرت الليالي حقًا على راحتهم حتى كبروا وتخرجوا وتسلموا زمام الوظائف بنينَ وبناتٍ فقرت عينها وطابت لها الراحة ولذيذ المنام، ولكن هذا لم يكن.

لقد أجزل لها أبناؤها العطاء، جلبوا لها خادمة تساعدها، وفَّروا لها من الأجهزة التي تسهل مهامها المنزلية الكثير، تحملوا عنها كسوتها صيفًا وشتاءً وفي العيد أيضًا، وجعلوا سائقًا تحت تصرفها وبين فينة وأخرى تهديها إحدى بناتها عقدًا أو خاتمًا أو ساعة حتى غصت خزانتها بها، يجتمعون عندها ولا ينقطعون عنها، ويوفرون لها ما يلزمها ويلزم البيت.

ولكن هل هم بها بررة؟ هل بقي من البر بها شيء؟ إنها دائمًا تشكو لي حالها مع بناتها حين يجتمعن عندها ويفكرن في زيارة حديقة أو سوق يتركن الجمل بما حمل، الرضيع، الصغير والمشاكس، ولا يعدن إلا متأخرات، ثم يجلسن يقلبن البضائع أو يتحدثن عما شاهدن وسمعن، تنادي إحداهن الخادمة: هاتي الشاي ويكملن السهرة!!!.

وهن بما يشترين لأمهن من هدايا كأنما يشترين سكوتها فهي بما يتفضلن به عليها باتت لا تستطيع الحديث معهن بأي شأن يضايقها حتى لا يقلن أنها تنكر الجميل.

وإلا فلقد تمادين جدًا في تصرفاتهن وعبثهن كما تحدثني هي عنهن فهذه زبيدة آخر بناتها زواجًا كلما مر بابنتها عارض صحي جاءت بها إلى أمها فهي لا تعرف ماذا تفعل بها؟ وليتها تجلس مع أمها لتتعلم منها لكنها تتركها وتمضي فلديها الكثير من الدروس والبحوث أليست زبيدة هذه تعطي أمها مبلغًا معينًا كل شهر؟!!.

أما دولت تلك الرقيقة الذائبة فهي لا تحتمل أطفالها وصراخهم في بيتها فكيف ستتحملهم في السفر، لذا كلما حزمت حقائبها مع زوجها تركت أبناءها عند والدتها!! ولم لا؟ فهي التي أهدت أمها خادمًا؟!!.

أطفالهن يأكلون الحلوى ويوسخون المكان ويبعثرون البسكويت على الأثاث والسجاد وهي لا تفتح فمها بكلمة، ففمها مملوء!! فالأثاث هم الذين وضعوه والخادمة هم الذين أحضروها.

وأمنية أكبرهن لا تزال تترك أبناءها عند أمها حين تريد الذهاب لأي مناسبة، فالناس باتت تتأذى من الصغار. والحقيقة أن أمنية هي التي تدفع راتب الخادمة مناصفة مع أختها علياء.

هذه تترك ابنتها قبل الدراسة عند أمها لتقوم الخادمة بتعويدها النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا وكأن هذه المهمة صعبة. والأخرى تطلب من زوجها أن يذهب بالأولاد إلى أمها حين يخرجون من المدرسة لأنها تخاف عليهم الوحشة.

والسائق لا يكف عن التنقل بينهن لتوصيل غرض أو قضاء حاجة ملحة!!. ولم لا؟ فهن جميعًا اشتركن في شراء سيارة لهذا السائق!!.

أختي تتضايق من هذا كله ولكنها صامتة لا تستطيع الكلام، معروفهن عليها كبير!!. هن لا يقصرن معها لا ينتظرن حتى تسألهن حاجتها لذا فهي تفضل السكوت

حتى ولو كان الأمر يزعجها وصراخ الأطفال وشغبهم يقلقها والسائق الغادي الرائح يثير أعصابها.

مهلًا بنات أختي فهذا ليس من البر، أمُكُنَّ سهرت أضعافًا وبذلت كل ما في وسعها في سبيل راحتكن وهي باسمة، فرحة، تتمنى أن ترى زهراتها تتفتح ولو على حساب ذبولها وشحوبها ولكنكن تبذلن بمقابل، أنتن تحسنَّ إليها وتأخذن الثمن بينما هي أحسنت وربت ولم تكن تبحث عن الثمن سوى حياتكن وسعادتكن فشتان بين إحسانها وإحسانكن(*).

«خالتكن»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

البنت لزوجها والراتب لأبيها

لم يكن شرط والدي الذي اشترطه على زوجي يعني لنا شيئًا، قال له: «البنت لك وراتبها لي» وافق زوجي دون تردد، فهو كان يظن أن هذا أمر شكلي لزوم التحرز وأخذ الحيطة أو أنه لجس نبضه وهل هو طامع أم راغب؟ وأنه فور وضوح الصورة وبيان معالمها سوف يترك لنا والدي راتبي، كنت أرى أن متطلبات الحياة المتسارعة سوف تدفع والدي للتنازل عن شرطه طواعية دون تذكير من أحد حتى يضمن لي حياة كريمة تليق بي.

مرت سنة واثنتان وثلاث، والحال على ما هي عليه، أستلم راتبي وأسلمه لوالدي دون أن أفكر في أخذ ريال منه، لم أكن أرى أن لي حقًا فيه بعد شرط والدي وموافقة زوجي، فنحن ما زلنا خفيفي الحمل لم تثقلنا الديون، ولم تكثر علينا متطلبات الأبناء.

حقيقة كنت في البدء متوجسة خيفة من زوجي، وكنت أسلم الراتب لوالدي بكل فخر فهو ما فعل ذلك إلا ليختبر زوجي ووفاءه، وبالمقابل كنت أطلب كل ما أشتهي دون تردد من زوجي لأتأكد من نجاحه في الامتحان!!.

ولكن مع مرور الأيام وثبات دعائم الحب عرفته جيدًا، وأدركت حقيقة نفسه وعزتها، وترفعه عما في أيدي الآخرين، فهو على مدى تلك السنوات لم يفتح معي موضوع الشرط أبدًا وإن كنت أحس أنه أحيانًا مستاء لهذا السبب، لكن الحياة مرة وصعبة وتزداد قسوة مع مرور الأيام، فالسنوات تمر، زاد عدد الأبناء، وكثرت التكاليف وأصبح راتب زوجي لا يغطي حاجتنا ونحن في أمس الحاجة إلى منزل نملكه بدل هذا المستأجر وإلى سيارة كبيرة تسعنا جميعًا، ووظيفتي تحتم علي وضعًا اجتماعيًا معينًا، أحتاج إلى أن أكون أكثر التفاتًا لهندامي، مرت فترة طويلة لم أشترِ فيها

قميصًا أو قماشًا، تكاثرت علي المسؤوليات فلا أدري بأيها أبدأ، غلت يدي عن تقديم الهدايا وصممت أذني عن سماع حاجات أبنائي، إيجار المنزل ثلاثون ألفًا، والفواتير دائمًا بثلاثة أصفار، غسالة الملابس أصبحت بالية، وأنا في حاجة إلى هاتف محمول، وبناتي لم أعد أستطيع إتمام متطلباتهن.، و.. ووالدي زاده الله من فضله يستلم تقاعدًا محترمًا، وإخواني لا يقصرون في حاجته ويقتطعون له مبلغًا جيدًا من رواتبهم كل شهر، وهو في نزل ملك، وله دكاكين يؤجرها، وإخواني كلهم متزوجون ومتزوجات، فهو في غنى عن راتبي، والعلة التي لأجلها اشترط ذلك الشرط انتفت بدوام الألفة وطول العشرة، ولكن مازال متمسكًا بشرطه، وكلما حاولت أن أوضح له عما في نفسي أشاح بوجهه عني وغضب مني، معللًا ذلك بأنه في مصلحتي!! وأنه أنفق علي سنين طويلة حتى حصلت على الشهادة وتوظفت ثم يأتي ابن الناس ليأخذني باردة مبردة تشيحين براتبك على والدك وتبذلينه لابن الناس!!.

كم من مرة أفهمت فيها والدي أن مسألة أخذه منه وإعطاءه لزوجي بات أمرًا منسيًا. فأنا التي أحتاج إليه، لأوسع على نفسي في أمور كثيرة، لم يعد الأمر ترفًا، بل ضرورة، أخرج من الصباح الباكر أكد وأتعب وأترك صغاري عند الخادم ثم أعود بعد الظهر منهكة أتحسس موضع رأسي في الفراش وأنام، ثم أستيقظ لأتم بقية يومي بين مطرقة الإرهاق وسندان المسئولية، ثم لا أعود من ذلك بشيء!! ترى ما هو الدافع الذي يحمل زوجي على الصبر على ذلك كله، إن لم يكن مكانتي في قلبه واحترامه للعهود والمواثيق؟! إنه الخاسر الوحيد في هذه الصفقة التي لم يدرسها جيدًا، فهو خسر زوجته التي امتص العمل طاقتها ونضارتها ولم يعطها شيئًا البتة، وخسر أبناءه الذين ضاعوا بين أمهم والخادمة، أمهم التي بدل أن تفيض حبًا وحنانًا فاضت تعبًا وكمدًا!! إنه حقًا صامت ولا يشكو شيئًا ولكن عينيه تحكيان الكثير.

فكرت أن أتقاعد لأحفظ بيتي ولكن والدي ظن أنها حركة للضغط عليه ليتراجع فغضب، ثم لو تقاعدت فإنني سأقف عند المنعطف الذي يبدأ منه الآخرون في تصحيح أوضاعهم وإنعاش حياتهم، فزميلاتي ممن لهن نفس خدمتي، سددن الديون المتراكمة، وملكن البيوت الواسعة، وبدأن يتنفسن برئتين.

يا والدي: لو تعلم مدى الضيق الذي أعيشه، لأدركت أنني ما سألتك بالله أن تتنازل عن شرطك إلا لأتنفس هواء الحرية النقي وأنطلق في فضاءات الحياة الرحبة أخطط وأبني مستقبلي لأخرج من هذا النفق البغيض إلى بيت الأحلام الواسع بإذن الله.

لا يا والدي لا أسألك أن تترك لي راتبي لأعطيه زوجي فلقد تجاوزت هذا الكلام بمراحل فأشفق علي وأرفق بي يرفق الله بك(*).

«أبننك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

من قصص النساء الصالحات

أخبرني أحد طلاب العلم أنه اتصلت به امرأة وهي تبكي وظنَّ أنها قد أذنبت بل قالت له: يا شيخ إني قد عصيت الله عز وجل، معصيةً عظيمة، فلما استفسر منها وسألها، فإذا هي قد تركت صلاة الوتر البارحة، فقالت: هل من كفارة أُكَفِّرُ بها عن ذنوبي.

وهذه أخرى من الصالحات، حَفِظت القرآن وهي فوق الستين، وأخبارها عجيبة، لكن مُلخص الخبر وهذا الموقف أو المواقف لها، أنها تجاوزت الستين ولّما ختمت القرآن في رمضان الماضي، استأجرت امرأة لا تعرفها ولا تعرفها النساء اللاتي حولها، حتى تُسَمِّع لها القرآن كاملًا، ولا يعلم بخبرها إلا قلة من النساء، وأَخَذَت العهد على بعض النساء ألاّ يُخبرن أحدًا.. فتاةٌ أخرى لها همةٌ عالية عظيمة، شابةٌ مُعاقة، أُصيبت في حادث بشللٍ رباعي جعلها طريحة الفراش أكثر من خمس عشرةَ سنة، امتلأ جسمها قروحًا وتآكل اللحم بسبب ملازمتها للفراش، ولا تُخرج الأذى من جسدها إلا بمساعدة أمها، لكن عقلها متدفق وقلبها حي مؤمن، فَفَكرت أن تخدم الإسلام ببعض الأمور، فوجدت بعض الأساليب والطرق التي تنفع بها دين الله عز وجل، أو تنفع بها نفسها وتنشر دين الله عز وجل، فجَعلت ما يلي:

١- فتحت بيتها لمن شاء، من النساء أن يزورها، أو حتى من الناس من محارمها أن يزوروها ليعتبروا بحالها، فتأتيها النساء ودارِسات التحفيظ، ثم تُلقي عليهن محاضرةً بصوتها المؤثر.

٢- جعلت بيتها مستودعًا للمعونات العينية والمادية للأسر المحتاجة، وتقول زوجة أخيها: إنَّ ساحة البيت الكبيرة لا أستطيع أن أسير فيها من كثرة المعونات للأسر الضعيفة.

٣- تُجهز المسابقات على الكتب والأشرطة وتوزعها على الأسر المحتاجة مع المواد الغذائية، ويقول أحد محارمها: إني لا أستطيع أن أُحَضِّر المسابقات إلا من طريقها.

٤- لا تدع مُنكرًا من المنكرات، من منكرات النساء إلا وتتصل على صاحبة المُنكر وتُنكر عليها.

٥- تُشارك في تزويج الشباب والشابات عن طريق الهاتف.

٦- تُساهم في إصلاح ذاتِ البين وفي حلول المشاكل الزوجية. إنها والله امرأةٌ عجيبة.

امرأة أخرى مات زوجها وهي في الثلاثين من عمرها، وعندها خمسة من الأبناء والبنات، أظلمت الدنيا في عينها وبكت حتى خافت على بصرها، وطوّقها الهم وعلاها الغم، فأبناؤها صغار وليس عندها أحد، كانت لا تصرف مما ورثته من زوجها إلا القليل، حتى لا تحتاج إلى أحد، وذات مرة كانت في غرفتها في شدةِ يأس وانتظار لفرج الله عز وجل، ففتحت إذاعة القرآن الكريم وسمعت شيخًا يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من لزِم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

تقول هذه المرأة: فبدأتُ أُكثر من الاستغفار وآمر به أبناءي، وما مرَّ بهم ستة أشهر حتى جاء تخطيط لمشروع على أملاكٍ لهم قديمة، فعُوِّضت هذه المرأة عن أملاكهم بملايين، ووفَّق الله أحد أبنائها فصار الأول على أبناء منطقته، وحفظ القرآن الكريم كاملًا، وصار الولد محل عناية الناس واهتمامهم ورعايتهم لما حفظ القرآن، وتقول هذه الأم: وملأ الله - عَزَّ وَجَلَّ - بيتنا خيرًا، وصرنا في عيشةٍ هنيئة، وأصلح الله كل ذريتها، وأذهبَ الله عنها الهم والغم، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢].

وهذا رجلٌ صالح عابد أُصيبت زوجته بمرض السرطان ولها منه ثلاثة من الأبناء، فضاقت عليهما الأرض بما رَحُبَتْ، وأظلمت عليهما الأرض، فأرشدهما أحد العلماء إلى: قيام الليل، والدعاء في الأسحار مع كثرة الاستغفار، والقراءة في ماء زمزم، واستخدام العسل، فاستمرا على هذه الحالة وقتًا طويلًا، وفتح الله عَزَّ وَجَلَّ على هذا الرجل وزوجته بالدعاء والتضرع والابتهال إليه جل وعلا، وكانا يجلسان من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، ومِنْ صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ــ على الذكر والدعاء والاستغفار، فكشف الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما بها وعافاها، وأبدلها جِلدًا حسنًا وشعرًا جميلًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، ذكر أحد الدعاة عن امرأة في روسيا، امرأةٌ غريبة في الدعوة إلى الله عز وجل، والصبر على التعليم، قد صنعت هذه المرأة ما لم يصنعه الرجال، ظلَّت هذه المرأة خمس عشرة سنة تدعو إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - سِرًا، أيام الحكم الشيوعي، وتنتقل من بيت إلى بيت وتُعلِّم النساء القرآن وتُخرِّج الداعيات، ولم تغفل أيضًا عن أسرتها ولا عن أولادها، فأولادها من كبار الدعاة في روسيا، وأزواج بناتها الأربع كلهم من الدعاة أيضًا، وأحد أزواج بناتها هو مُفتي البلدة التي تُقيم فيها هذه المرأة(*).

❀❀❀

(*) موقع «القصص الواقعية».

هموم امرأة موظفة

نهاري قلق ونومي أرق وحياتي في تقلب بينهما ومع هذا يحسدني الناس، فهل عرفتموني؟! إنني معلمة، أقضي فترة العطاء والنشاط والقوة التي تمتد من العشرين حتى الأربعين بين أسوار المدرسة. تستنزف الوظيفة طاقتي وجهدي، وتسرق صحتي ونضارتي، وتحرمني من أبنائي.

حياتي على الضفة الأخرى التي لا ترونها مرهقة، أخرج منذ ساعات الصباح الأولى متجهة إلى المدرسة، أترك قلبي في البيت مع أطفالي الصغار، أدعهم مع الخادمة، امرأة أجنبية لا تمت لهم بصلة، جاءت تبحث عن لقمة العيش فقط، ليس لديها ثقافة دينية أو توعية، أدخل الفصل، أشرح للطالبات وأنا أفكر في أبنائي.. هل استيقظوا الآن: هل أفطروا: ماذا أعدت لهم؟ هل غسلت أيديهم قبل الأكل وبعده؟ هل هم يلعبون أم يتضاربون؟ هل الخادمة «تسمي عليهم» وتنتبه لهم أم هي لاهية في أعمالها المنزلية؟ أم تراها تحادث خادمة الجيران أو ربما عامل البلدية؟ لكنني أغلقت الباب بالمفتاح؟ هل حقًا أقفلت الباب أم أني نسيت كالعادة؟ يا إلهي ماذا لو حدث لأبنائي مكروه في المنزل كيف يمكنهم الخروج؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اللهم احفظهم يارب.

أنا الآن أشرح الدرس وأجيب على الأسئلة ولكن ذهني مشتت، وقلبي مضطرب وفكري مبعثر. حيرة بين البيت والمدرسة.. ترى متى يحين موعد الراحة والاستقرار؟

مسافرة أنا أحمل زادي فوق كاهلي.. يثقل جسمي ويرهق أعصابي.. حتى متى أظل هكذا؟ احدودب الظهر تقليبًا وتصحيحًا في الدفاتر.. وضعف النظر تدقيقًا وتمحيصًا في الأوراق... وامتلأ الصدر من الطباشير غبارًا وسمومًا، هواء ملوثًا

وأنفاسًا مختلطة وأمراضًا.. متى سترحمني الوزارة وتدركني قبل أن أحترق همًا ومرضًا وضغطًا؟

متى أتقاعد؟ وماذا ستبقى المدرسة لي آنذاك؟ إنها أخذت الصحة والنضارة وأبقيت الهم والمرض والجسم العليل، أتقاعد بعد سن الأربعين؟ وماذا سأقدم لأبنائي حينذاك؟ وأين سيكون زوجي؟.

أبناءي الذين يدرسون الآن لهم همٌّ آخر... أفكر فيهم، هل جاءوا من المدرسة؟ إذن هم عند الجيران كالعادة،لابد أنهم مكثوا في الشمس مدة طويلة، ولكن والدهم اليوم سيأتي مبكرًا؟ إذن هم في البيت يبحثون عن شيء يضعونه في بطونهم الخاوية؟ مساكين يصبحهم وجه الخادمة ويمسيهم.

أما أنا أعود من المدرسة وقد بلغ مني الجهد كل مبلغ.. رأسي تثقيل والصداع يكاد يمزقني لا أكاد أرى طريقي.. أتحسس الفراش.. وألقي على الخادمة بعض العبارات المكررة ثم ارتمي كجثة وأغط في نوم عميق.

الأولاد يلعبون... يصرخون.. يخبطون الأبواب بشدة.. يكثرون من التشكي.

أستيقظ من النوم وقد ازداد الصداع حدة ثم أبدأ في خوض معارك على عدة جبهات.. التدريس، تحضير الدروس، مراجعة الأولاد، تجهيز الوسائل... مر الوقت كالبرق.. يا إلهي لم أتم التحضير.. لم أراجع لسمية العلوم... ولم أعط لياسر تدريبات رياضية.. أوه حتى أمي لم أتمكن من محادثتها اليوم.. غدًا إن شاء الله سيكون في الوقت متسع.

كترس في آلة كبيرة يدور ويدور حتى يتلف هكذا أنا... في كل صباح تسبح الطيور بحمد ربها ويردد الكون تسبيحها تراها في كمد ونصب (أمي أين شرباتي)، (اذهبي اسألي الشغالة)، (أين قلمي الأسود أمس كان هنا)، (اسأل الشغالة أنا ما

أعرف عنكم)، (ملابس المدرسة لم تكوَ)، (قولي للشغالة تكويه.. الآن تذكرين) وهكذا صراخ.. زعيق كل يوم كأنما هو وِردٌ نردده.

متى أضع حملي عن راحلتي.. متى أتوقف عن السفر... هل سأنتظر حتى أتم الفترة التي يسمح لي بعدها بالتقاعد؟ لقد بقي ضعف ما مضى.. وأبناءي الآن يقفون على مشارف المراهقة.. إنهم في أشد الحاجة لي.. كم أنا بعيدة عنهم.. تكاثرت علي الهموم فما أدري بأيها أفكر وأيها أحل؟.

أين الحاسدات والغابطات ليرين على ماذا يحسدنني؟ على صداع لا يتوقف؟ أم على قلق ملازم لي في كل وقت؟ أم على هذا الضغط الذي ألاقيه من المدرسة والبيت، تحضير وتصحيح ورصد درجات، ومراجعة أوراق واختبارات شفهية وتحريرية وغيرها وأبناء يدرسون يحتاجون إلى متابعة ومراجعة وصغار يحتاجون إلى أم تجلس إلى جانبهم تطعمهم بيدها، وتمسح على شعورهم، تقرأ عليهم الورد وتعوذهم بالله ولكن أين هي؟ إنها مدفونة تحت ركام الدفاتر والأوراق، إنها دائمًا مشغولة دائمًا مشتتة.

يارب: البيت أم المدرسة. الأبناء أم الوظيفة؟ القرار في البيت أم الخروج للعمل. مازلت حائرة، متعبة فلكليهما وجهٌ حسن.

الحل هو أن ترغمني الوزارة على الجلوس في بيتي حين أقدم لها خمس عشرة سنة من عمري خدمة وتدريسًا وشرحًا، ليبقى لأبنائي جزء من العطاء أهبهم إياه قبل أن تنتهي مدة صلاحيتي، وأُرمى في مزبلة الحرمان والعجز، مع التحية لمن بيده القرار(*).

«أختكم المعلمة»

(*) موقع «القصص الواقعية».

obeikandl.com

من دموع السجينات

السجن والحبس والمنع أمر صعب على النفوس، يؤرقها ويزعجها ويؤلمها، والسجن ابتلاء لا يرغب فيه الإنسان ويتحاشاه قدر الإمكان، ويفر منه في كل زمان ومكان، فهو مستقبح في أغلب الأحيان، إلا إذا كان في طاعة الرحمن ومعصية الشيطان، فعندئذٍ يكون دفعًا لضرر أكبر، وشرًا لا بد منه، يختاره المؤمن طواعية عندما يكون البديل معصية، أو جرمًا يقترفه، وقد اختار نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن، وفضله على الزنا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن القبح بمكان أن يختار العاقل السجن والمعصية معًا، فيجتمع له الأمّران، فيعاني من مرارة السجن إضافة إلى ألم المعصية التي أتاها مختارًا راغبًا ساعيًا، ثم يبقى يتوجع ندمًا وحسرة وحزنًا، هذا إذا كان من الرجال.

أما إذا كان السجين امرأة أو فتاة فالأمر أشد والخطب أعظم، والجرح أنكى، فهي بذلك تدمر حياتها وحياة آخرين معها، وتجلب العار والشنار، وتتسبب في ظلمات بعضها فوق بعض، ولكن هل يوجد من النساء من يسعى للمعصية والسجن والعار؟ دعونا نقف عند بعض القصص الواقعية الحديثة المعاصرة التي رواها أصحابها، أو نقلها القريبون منها، سائلين الله السلامة والعافية لجميع المسلمين:

١- هذه فتاة تعرَّفت على صديقة سيئة في الجامعة فعرّفتها على شابٍ كانت مؤهلاته الأناقة والوسامة وأصول الإتيكيت كما يقال وأنه رومانسي لا يوجد مثله استطاع أن يصطادها بأسلوبه وخفة دمه، فصارت تحادثه الساعات الطويلة، وكان الشيطان يستدرجها حتى تطورت العلاقة وخرجت معه مرات عديدة لتقع المصيبة الكبرى

الجريمة العظمى (الزنا) وبعد أشهر حملت منه سفاحًا، ثم اتفقا على إجهاضه وقتله وهو من لا ذنب له، ولكن الله كان بالمرصاد فهو الذي يمهل ولا يهمل، فكشف الله الجريمة على يد رجال الأمن، فأودعت السجن جزاء السبل الممنوعة والطرق الشيطانية، فأضاعت كرامتها وأهدرتها بدون مقابل إلا شهوة دقائق بقيت آلامها شهورًا طويلة عاشتها في السجن تعد الأيام عدًا وتتجرع الأسى والأسف.

٢- وهذه أم في الستة والثلاثين من عمرها، لها ثلاثة من الأبناء سجنت بسبب خطيئة دقائق، فبعد موت زوجها في حادث بدأت بالخروج من بيتها لمناسبة ودون مناسبة حتى وقعت ضحية رجل اصطادها في حين غفلة منها فاستطاع أن يقتلها في عفافها وكرامتها بعدما تطورت العلاقة وصار الاتصال بشكل يومي عبر الهاتف ورسائل الجوال الشيطانية بحجة أنهم كبار ويعرفون مصلحة أنفسهم، ومضت أيام التعارف تسير في بحر الشهوة ونار الفتنة حتى قابلته مرات عديدة، فجنت على نفسها وعلى عفافها وشرفها وصيانة حق زوجها الميت وأولادها منه، كل ذلك بالتخدير المعنوي من خلال الصور الجنسية القاتلة والقصص الخليعة المهلكة، فدخلت السجن ونالت العقاب حسب النصوص الشرعية فيما اقترفت من مقدمات الزنا وذاقت مرارته وتجرعت غصصه وآلامه، وكيف لو وقعت في الزنا.

٣- وهذه فتاة عمرها ١٨ سنة تعيش مع أهلها برغد وعيش ومال وفير، كانت أحلامها وأمانيها معلمة أوطبيبة يشارُ لها بالبنان وتتحدث عنها القريبة والصديقة في المجالس والمنتديات تعرفت في بداية جامعتها على زميلة سيئة أكسبتها الخلق السيئ والتعامل القبيح مع أهلها فقد بدأت العلاقة مع زميلتها بالمكالمات المطولة عبر الهاتف وجهازها النقال ثم ما لبثت أن تطورت إلى زيارات مشبوهة تحت مسمى الحفلات والصديقات لمناسبة ودون مناسبة!! ثم تطور الأمر إلى تعاطي المخدرات والإدمان، بل إلى الترويج وجر أختها معها.

وبعد ذلك السجن والدموع والقلق، والإحراج للأهل والأقارب، وضياع الدراسة والأهداف النبيلة.

٤- وهذه فتاة تعرفت على شاب عبر الانترنت، انخدعت بأسلوبه ثم تطورت العلاقة بطريق الماسنجر سنة أو تزيد والتعارف يزداد يومًا بعد يوم حتى رأته ورآها وجلست معه مرات عديدة في بعض المطاعم والمنتزهات، ثم رغب في زواجها ولكن أهلها رفضوه بعد السؤال والتحري عن دينه وخلقه، ولكنها أصرت على رغبتها، وتم الزواج في وضع كئيب بعيدًا عن أحضان أمها وفرحة أبيها لكن هي شهوة النفس ونهاية التعلق المقيت.

ثم تكون المفاجأة والصدمة الكبيرة حين علمت أنه مدمن مخدرات، صار يتلذذ بتعذيبها ويتعمد إهانتها وإذلالها، وتبخر الكلام الجميل المعسول قبل الزواج، وأصبحت وحيدة بكل ما تحمله من عبرة وحسرة.

ثم رأته يعقد صفقاته عبر الانترنت مع معارفه وأصحابه فضلًا عن إدمانه للمواقع الإباحية والعلاقات المحرمة مع النساء والفتيات وأمامها دون حياء ولا كرامة، فلما سبته وشتمته ضربها ضربًا شديدًا تحت ضغط المخدر، فلما طلبت منه الطلاق جعلها طُعمًا لعملية قذرة في ترويجه للمخدرات دون علمها وكانت النهاية دخولها السجن.

وبعد ذلك تخرج فلا تجد لها مكانًا ولا دارًا ولا مأوى إلا منزل أبويها، تبكي تحت قدميهما، وتعلن ندمها وحسرتها.

٥- وهذه فتاة جامعية عمرها ٢٣ سنة تحمل مؤهلًا جامعيًا، وقعت ضحية الصديقة السيئة التي أوقعتها في بحر الشهوة المتلاطم بالغفلة والبعد عن طاعة الله، فتعرفت على مجموعة شباب وكانت في البداية تسلية وقضاء وقت، لكن وبمرور الأيام

والوقت والتعود على التلاعب بمشاعر الشباب بالصوت الناعم وحسن إتقان العبارات تطور الأمر إلى ما هو أكبر وأبعد من التعرف إلى اللقاء الجماعي مع الشباب والفتيات وقد هالها جدًا الترتيب والتنظيم حتى غرقت مع الشلة الحقيرة فهي الخامسة بين أربع فتيات وأربعة شباب وكانوا حريصين جدًا على حضورها في أيام الاجتماع الشهري، ثم ساءت حالتها واسودت الدنيا في وجهها بعد أن وقعت في جريمة الزنا تحت ضغط الشهوة وعنفوان الشباب وضعف الإيمان وقلة التوجيه، ولما رجعت للمنزل بكيت وحافظت على الصلاة وقررت مقاطعة الشلة بأكملهم.

ولكن الشيطان يتدخل على لسان صديقتها تخبرها باشتياق الشلة لها وأنهم فقدوها، وأن هناك حفلة للبنات والمتخرجات من الجامعة فقط فوافقت وحضرت تلبية لرغبتها وبعد ساعة تقريبًا إذ بالشباب يحضرون فحاولت الخروج ولكنها ضعفت.

وبعد ذلك إذا برجال الأمن يداهمون المكان ويقبضون عليهم جميعًا، ثم إلى السجن.

٦- وهذه سجينة حكم عليها في قضية أخلاقية ٩ أشهر بسبب صديقتها، وبعد خروجها بادرت بزيارة الصديقة، فأخبرتها أمها بأنها في المستشفى في حالة سيئة، فأسرعت إليها، فقيل لها أنها مصابة بمرض(الإيدز)، فرأتها قد شحب وجهها ومال للسواد ونقص وزنها فضلًا عن عينيها الغائرتين، وشممت منها رائحة كريهة جدًا، وعيناها تذرفان الدمع والألم، ويبقى السجن أرحم من معاناة الإيدز!!

٧- وهذه فتاة حضرت مع عدد من زميلاتها حفلة ما يسمى (عيد الحب)، فشربت الدخان تحت ضغط المجاملة، وخرجت من الحفل وصور البنات ونشوة التدخين اللعين مع الرقص على أنغام الأغنية العربية والإزعاج الغربي لم تفارق مخيلتها إعجابًا بما رأت من التنظيم والإتيكيت، وعادت للبيت ورائحتها تعج بالتدخين، فلما شمت أمها ذلك نهرتها بصوت مرتفع وقام والدها فضربها بشدة وطلب منها

مقاطعة المجموعة، ولكنها استمرت تدخن في الخفاء وخاصة حالة خروجها للجامعة مع السائق، ثم تطور الأمر إلى تعاطي حبوب المخدرات عن طريق الصديقة السيئة، ثم وقع لها حادث في سيارة صديقتها، واكتشف رجال الأمن مشروبات كحولية بالسيارة، مما ترتب عليه دخول السجن.

٨- وهذه طالبة كانت لا ترضى بأقل من تقدير (ممتاز) من بداية تعليمها حتى الثانوية حيث تغير مجرى حياتها نتيجة تعرفها على صداقة سيئة من الفتيات حتى غيروا تفكيرها وآمالها، وتطور الأمر إلى سرقة ذهب والدتها وبيعه، وانقلاب حياتها إلى هموم وأحزان، ومصائب ومصاعب، فقد هجرت تلاوة القرآن الكريم وأكثرت من السهر وأدمنت متابعة الإنترنت بكثرة حتى غرقت في بحر الشهوات وتاهت في دهاليز الظلمات مما أورثها النكد في العيش والظلمة في القلب والضيق في الصدر... وفي يوم يرن الهاتف مخبرًا بأنها سجينة ومتهمة ضمن عصابة تسرق الذهب وتبيعه.

تلك قصص وحكايات ليست من نسج الخيال، ولا بنات الأفكار يندى لها الجبين، وتقشعر لها الأبدان، وتتألم لها القلوب، قصص كان ضحيتها المرأة الطيبة العزيزة الكريمة المصونة يوم اختارت المعصية بدل الطاعة، والغناء والرقص بدل القرآن، والدخان بدل السواك، والمخدرات بدل المباحات الطيبات، والصاحب والصديق بدل الزوج الحبيب، والسهر في المقاهي والفنادق بدل الاعتكاف في بيتها والحفاظ على مملكتها، ونسأل الله أن يحفظ مجتمعات المسلمين من كل سوء ومكروه(*).

❀❀❀

(*) من كتاب «دموع السجينات» للأستاذ/ حمد بن سليمان اليحيى. بتصرف واختصار.

زوجي لم يتغير!

منذ طلاقي من زوجي وأنا أحمل هم هذين الصغيرين ابني وابنتي ذلك أن والدهما نفض يديه منهما، وأخلى مسئوليته، فكأنه لم يتزوج وكأنه لم ينجب إنه يريد أن يستمتع بحياته مع امرأة أخرى دون أن يعكرها وجود أيتام.

قلبت نظري في الأمر مرارًا، ثم قررت ألا أخوض تجربة زواج أخرى لأتفرغ لتربيتهما وأبعد عنهما ما يكدر صفو حياتهما من المنغصات إلا إذا... وضعت شرطًا لازمًا لهذا وهو أن يعيش أبنائي تحت مظلتي وفي بيتي.

خاطب تلو آخر وأنا أرفضهم أو يرفضون شرطي، حتى جاء أحدهم وسد أمامي كل المنافذ ونسف كل الأعذار.

- أبنائي؟!!
- أبناؤك مثل أبنائي، وإن ضايقتهم بشيء فلك حق البقاء أو العودة إلى بيت أهلك.
- لكني لا أملك مالًا أنفقه عليهما ووالدهما تبرأ منهما منذ خرجت من بيته.
- المال الذي يسع أبنائي سيسعهم.
- ابني «عبد الله» كثير الحركة.. مؤذ... كثير الـ...؟!
- كل هذه أمور طبيعية.. أنا لي أيضًا أبناء.. والذي يعتب على الصغار فلا عقل له.

ترددت كثيرًا.. هل يمكن أن يكون صادقًا؟ أم أنه كلام سرعان ما تذهب به الرياح؟ أقبل أم أرفض؟! ثم ما الذي يدعوه للكذب مثلًا أو المراوغة، أنا امرأة كسائر النساء ليس لدي مال أو إرث أو شيء يطمعه في..

استخرت الله كثيرًا ثم استعنت به وتوكلت عليه وسألته التوفيق والرحمة لهذين الصغيرين فمن يدري ربما كان هذا الرجل أبًا مستعارًا لهما.

obeikandi.com

أقبلت ودافعت وتم الزواج في جو عائلي بسيط..

أتذكر هذا، بعد أن مضى على زواجي أكثر من خمس سنوات، وجدت فيه الزوج العادل والأب الحاني.

قد لا أستطيع أن أصف كل ما يفعله مع أبنائي لكنه حتمًا يعتبرهما كأبنائه يعطيني المال لأشتري لهما الملابس والمستلزمات الأخرى، يشتري لنا مثل ما يشتري لبيته الآخر لا ينسى الشوكلاتات، والعصيرات، والألعاب يوفرها دون أن أسأله ذلك، لم يتضايق منهما يومًا، ولم يطلب مني أن أتركهما في بيت والدي عدة أيام كما يفعل البعض. ومع أنني أنجبت له اثنين إلا أنه لم يغير في تعامله مع أبنائي شيئًا.

فيحاء ابنتي تسميه بابا حين يأتي من العمل يخفي خلف ظهره حلواها المفضلة ثم يسألها عما في يده حتى تحزر ما هو فيعطيها إياه وقد علت وجهها تباشير الفرح.

وخالد صبر عليه حتى كبر وتحمل أذيته وبكاءه المتواصل.. كان طفلًا عنيدًا مشاكسًا حين يغضب يرمي من حوله بأي شيء تقع يده عليه. لم يكن ليكدر لي سعادتي سوى لعبه الخشن ورعونته ومع هذا كان ينظر إليه على أنه طفل غدًا يكبر وينعدل سلوكه. وفعلًا كبر خالد ودخل المدرسة فصار يسأل عنه ويحضر مجلس الآباء ويلبي له طلباته ويشرح له أحيانًا ما استغلق عليه، ويوجهه وينصحه في اختيار رفاقه وجلسائه.

وحين يسمعني ألوم ابنيَّ (فيحاء وخالد) على كثرة طلباتهما، وأطلب منهما التخفيف عنه يتضايق ويغضب مني ويقول: إن مالي يسعهم جميعًا أنت تريدين أن تحرميني الأجر؟!.

الأجر.. الأجر.. هذا هو الذي كان دافعًا حقيقيًا له للزواج من امرأة مطلقة لها أبناء، وليس لها وظيفة أو دخل مادي، تنفق منه على أبنائها، ولم يكن لي أهل أيضًا.. كان

والدي تزوج من أخرى غير أمي.. ولم نكد نراه إلا لمامًا...ووالدتي متوفاة من مدة طويلة رحمها الله.. وإخوتي كلٌ يسعى في مناكب الأرض يطلب الرزق.

الأجر.. هو الذي جعله طوال هذه السنوات لم يرفع يده أو العصا على خالد بالرغم من أنه يثير الأعصاب ويدفعنا للغضب.. إنني أضربه في حين يكتفي زوجي بتوبيخه وأحيانًا يسمح على رأسه قائلًا: الله يهديك.

إن أبنائي جميعهم يجدون منه الرعاية والعناية ذاتها.. يلبسون ويأكلون ويتمتعون من خيره دون تمييز بينهم.. كيف له هذا كله؟ إنه يساوي بينهم في النظرات والابتسامات والاهتمام بل إن «فيحاء» وهي البنت الوحيدة بين ثلاثة ذكور لها وضع خاص فهي تجلس بجانبه على سفرة الطعام يقطع لها اللحم ويسمع منها الحكايات الطفولية التي لا تنتهي والخناقات الكلامية بينها وبين صديقاتها.

إن لزوجي قلبًا كبيرًا يفيض حبًا ورحمة لهؤلاء الأيتام، إن قلبه قبل ماله وسعنا جميعًا فجزاه الله خيرًا وأثابه الأجر الذي يريد وأسعده في الدنيا والآخرة(*).

«زوجتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

خنساء هذا العصر

سافرت إلى مدينة جدة في مهمة رسمية.. وفي الطريق فوجئت بحادث سيارة.. يبدو أنه وقع لحينه.. كنت أول من وصل إليه.. أوقفتُ سيارتي واندفعتُ مسرعًا إلى السيارة المصطدمة.. تحسستها في حذر..

نظرتُ إلى داخلها.. حدَّقتُ النظر.. خفقات قلبي تنبض بشدة.. ارتعشت يداي.. تسمَّرت قدماي.. خنقتني العبرة.. ترقرقت عيناي بالدموع.. ثم أجهشتُ بالبكاء.. منظر عجيب.. وصورة تبعثُ الشجن..كان قائد السيارة ملقى على مقودها.. جثة هامدة.. وقد شخص بصره إلى السماء.. رافعًا سبابته.. وقد افتر ثغره عن ابتسامة جميلة.. ووجهه تحيط به لحية كثيفة.. كأنه الشمس في ضحاها.. والبدر في سناه.. العجيب أن طفلته الصغيرة كانت ملقاة على ظهره.. محيطة بيدها على عنقه.. ولقد لفظت أنفاسها وودعت الحياة.. لا إله إلا الله..لم أَرَ ميتة كمثل هذه الميتة.. طهر وسكينة ووقار.. صورته وقد أشرقت شمس الاستقامة على محياه.. منظر سبابته التي ماتت توحد الله.. جمال ابتسامته التي فارق بها الحياة.. حلَّقت بي بعيدًا بعيدًا..

تفكرتُ في هذه الخاتمة الحسنة.. ازدحمت الأفكار في رأسي.. سؤال يتردد صداه في أعماقي.. يطرق بشدة.. كيف سيكون رحيلي؟! على أي حال ستكون خاتمتي؟! يطرق بشدة.. يمزِّق حجب الغفلة.. تنهمر دموع الخشية.. ويعلو صوت النحيب.. من رآني هناك ظن أني أعرف الرجل.. أو أنَّ لي به قرابة.. كنت أبكي بكاء الثكلى.. لم أكن أشعر بمن حولي! ازداد عجبي.. حين انساب صوتها يحمل برودة اليقين.. لامس سمعي وردَّني إلى شعوري.. يا أخي لا تبكِ عليه إنه رجل صالح.. هيا هيا.. أخرجنا من هنا وجزاك الله خيرًا..

التفتُّ إليها فإذا امرأة تقبع في المقعد الخلفي من السيارة.. تضم إلى صدرها طفلين صغيرين لم يُمسا بسوء، ولم يصابا بأذى.. كانت شامخة في حجابها شموخ الجبال.. هادئة في مصابها منذ أن حدث لهم الحادث! لا بكاء ولا صياح ولا عويل.. أخرجناهم جميعًا من السيارة.. من رآني ورآها ظنَّ أني صاحب المصيبة دونها.. قالت لنا وهي تتفقد حجابها وتستكمل حشمتها.. في ثبات راضٍ بقضاء الله وقدره: لو سمحتم اذهبوا بزوجي وطفلتي إلى أقرب مستشفى.. وسارعوا في إجراءات الغسل والدفن.. واحملوني وطفلي إلى منزلنا جزاكم الله خير الجزاء. بادر بعض المحسنين إلى حمل الرجل وطفلته إلى أقرب مستشفى.. ومن ثم إلى أقرب مقبرة بعد إخبار ذويهما.. وأما هي فلقد عرضنا عليها أن تركب مع أحدنا على منزلها.. فردَّت في حياء وثبات:

لا والله.. لا أركب إلا في سيارة فيها نساء .. ثمَّ انزوت عنا جانبًا.. وقد أمسكت بطفليها الصغيرين.. ريثما نجلب بغيتها.. وتحقق أمنيتها! استجبنا لرغبتها.. وأكبرنا موقفها..مرَّ الوقت طويلًا.. ونحن ننتظر على تلك الحال العصيبة في تلك الأرض الخلاء.. وهي ثابتة ثبات الجبال.. ساعتان كاملتان.. حتى مرت بنا سيارة فيها رجل وأسرته.. أوقفناه.. أخبرناه خبر هذه المرأة.. وسألناه أن يحملها إلى منزلها.. فلم يمانع(*).

❀❀❀

(*) من كتاب «بنات المملكة» للشيخ/ خالد بن إبراهيم الصقعبي.

أحب أبي لوفائه لأمي

يقولون (**كل فتاة بأبيها معجبة**) وأنا من أشد الفتيات إعجابًا بأبي لأنني أولًا فطرت على حبه والتعلق به، وثانيًا لأن والدي يملك صفة عزت في رجال هذا الزمن الموحش.. تفوح رائحتها الزكية من ثيابه وحديثه.

قبل أقل من ثلاثين عامًا أصيبت والدتي بمرض غامض كانت تلزم على إثره الفراش أيامًا عدة، كانت لا تكلم أحدًا ولا ترغب في رؤية أحد حتى إنها لا تستطيع الاعتناء بنا وكنا صغارًا ذلك الوقت.

لم تكن جدتي لأمي على قيد الحياة، ولم يكن لها أخوات وكان أخوها الوحيد يسكن في مزرعته في مكان بعيد عنا كثيرًا، وكنا صغارًا نحتاج للرعاية والاهتمام، فكان والدي يتولى شئوننا ويرعى أحوالنا. تكرر المرض بعدها على والدتي وصار ملازمًا لها.. كانت نوباته تأتي شديدة أحيانًا فيصاحبها بكاء وألم وإعراض تام عنا جميعًا، كانت ترفض أن ترانا أو نراها.

وأحيانًا يكون المرض عابرًا وفي مرات ليست بالقليلة تصبح امرأة ثانية معافاة تمامًا وطبيعية. حين كبرت كنت أرى في عيني أمي شيئًا يشبه الأسى، نائمة في فراشها، صامتة، تنظر إلى المجهول وأحيانًا تتألم، قالوا: إنه عين حاسد أعاذنا الله وإياكم منها وقالوا: مرض نفسي وقالوا: مرض في الأعصاب وغيرها، ولكن والدتي لا تتحسن مع العلاج كثيرًا.

أين والدي إذن؟

كان والدي يأخذ إجازة من عمله حين تدخل في إحدى نوباتها المرضية، كان يهتم بها ويلبي لها طلباتها الصعبة، كان يجهز لنا الطعام ويغسل ملابسنا، ويعلمنا كيف نرتب

البيت ولم يكن هناك خدم، وكانت بعض الجارات الطيبات يمددننا بالطعام حين يعلمن عن حالنا.

لم يشكُ والدي طوال تلك السنين حاله لأحد، لم يكن يتحدث عن مرضها أمام أحد ولم يتبرم منها يومًا، علمنا أن الحياة يجب أن تسير كما هي، ويجب ألا يؤثر مرض والدتي على سيرنا في الدراسة أو في تعاملنا مع الآخرين أو في التفكير في حياتنا المستقبلية، علمنا أن نتعامل مع الوضع برضا تام.

وكان هو لا يفارق فراشها في أوقات مرضها يقرأ عليها القرآن وينفث على صدرها ويدعو لها بالشفاء. أخذها ذات يوم إلى المستشفى، مكثا وقتًا طويلًا ثم عادا وهي تحمل معها كيسًا به أدوية، علمت فيها بعد أنهما زارا الطبيب النفسي، لم يتحدث والدي بهذا كثيرًا، ولم يفصل أو يشرح لأحد طبيعة مرضها كان يحمد الله تعالى ويقول: «اللهم نسألك اللطف في القضاء».

وإذا شفيت والدتي أو بالأصح زالت عنها النوبة لم يكن ليحدثها عن مرضها وعن ماذا عملت فيه، بل إنه يحاول الخوض في أحاديث شتى عن الدراسة عن البيت الجديد، وأحيانًا يأخذنا في زيارة لمزرعة خالي نشم الهواء العليل ونجدد الروح المريضة.

هل وجدتم أوفى من أبي؟ أرأيتم لماذا أنا معجبة به؟

كان بإمكانه أن يتزوج بأخرى أو يطلق أمي.، لكنه لم يفعل، وكان بإمكانه أن يظل سلبيًا معها يتركها هملًا، أو يتركها عند أخيها، ولكنه أيضًا لم يفعل، بل وقف إلى جانبها وساندها ودعا لها وتحملنا ونحن صغار بكل جلد.، ودخلنا المدرسة فكان يصنع لنا الإفطار وشرائح الخبز للمدرسة وتمشيط شعري، وحين نعود من المدرسة نجده قد أعد لنا طعاما شهيًا لم يقل: إن والدتكم مريضة لا تشتهي الطعام بل قال: إنها لم تقدر أن تصبر فسبقتنا إلى الأكل.

لقد علمنا أبي معنى الوفاء لمن نحب... ومعنى الصبر على المصيبة.. وفن التعامل مع المرض، علمنا كيف نجعل قلوبنا سليمة... كان الناس يتهمون فلانة وفلانة وكان لا يتهم أحدًا، تعلمنا منه كيف نأخذ بالأسباب ونتوكل على المسبب سبحانه.

أخذ أمي إلى القراء الموثوقين.. وإلى العيادة النفسية.. وطرق باب من لا يخيب طالبه، وكان دائمًا يرجو خيرًا ومازال يحسن الظن بربه، اللهم أمد في عمر والدي واشف والدتي واختم لهما بالرضا(*).

«ابنتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

ومن الحب ما أشقى

فريدة هي ابنتي البكر... أحببتها ودللتها كثيرًا وفرت لها ما تحتاجه وما تتمناه وربما ما لا تحتاجه... نشأت لا تستغني عني ولا أستغنى عنها، زوَّجتها وفرحت بها كأي أم ودعوت الله أن يسعدها ولم أقف عند حد الدعاء، بل تجاوزته إلى التفكير في كيفية تهيئة أسباب السعادة والراحة لها، لقد وقفت بنفسي على كل صغيرة وكبيرة في حياتها حتى أتمكن بزعمي من تذليل كل صعب وتسهيل كل شاق.

ومن هنا بدأت الخطوة الأولى التي تلتها خطوات كثيرة جعلتني أقف في منتصف الطريق وأتأمل ماذا قدمت لابنتي؟ بل ماذا جنيت عليها؟ وأين السعادة التي سعيت لتوفيرها؟

منذ أول يوم من زواجها كنت أتصل بها، لم أنتظر يومًا واحدًا أن تتصل بي، أسالها عن حالها عن كل ما يجد في حياتها.. كنت من فرط حبي لها ورحمتي أبادر بإرسال طعام الغداء لها حين تشكو من أي تعب مثلًا قد تكون سهرت الليل وتأخرت في الاستيقاظ نهارًا ولا أكتفي بذلك، بل أرسل الخادمة لها في الأسبوع مرة أو اثنين تغسل لها الملابس وترتب البيت وتنظفه.

لقد كانت عندي في دلال وحبور ومع ذلك فقد كانت تتعب من الدراسة فكيف بها اليوم وقد ازدادت المسئولية عليها؟ لقد حشرت أنفي في تفاصيل حياتها.. أتعبتها من حيث أردت راحتها، كان زوجها يريدها أن تعتمد على نفسها.. أن تحس بمسئولياتها وكنت أريد أن تظل ابنتي المدللة.. رفضت مثلًا أن تعود مع الحافلة من الكلية وإذا كان زوجها لا يستطيع إرجاعها فعندنا السائق يتكفل بذلك.. تعود من الكلية إلى بيتي تأخذ قسطًا من الراحة ثم حين يأتي موعد عودة زوجها إلى البيت تأخذ

معها غداءها إلى بيتها، أشعرتني أكثر من مرة أن زوجها يتضايق لاستمرار هذا الوضع لكنني هونت عليها الأمر بأنه لصالحها فكل ما أفعله هو بسبب حبي لها ورأفتي لحالها.

كنت أوجهها في كل شيء.. وأفرض عليها تفكيري ونمط الحياة التي عايشتها من قبل.. الهدايا لا أرضى أبدًا أن تكون بمستواها الذي تستطيعه.. بل أفرض عليها هدايا فوق طاقتها ومستوى زوجها، هدايا تناسبني أنا أعطيها إليها لتقدمها باسمها في أي مناسبة.. لقد اعتادت هذا الأمر ولم تعد تفكر في أي هدية ستقدمها فعندها من يفكر لها ويشتري ويدفع أيضًا.

لا أسمح لزوجها أن يحرمها حضور الحفلات صغيرة كانت أم كبيرة، فلقد كانت في السابق نجمة كل حفلة بلباسها، بتميزها فحين يرفض أن يوصلها أرسل لها السائق وأتكفل بإرجاعها أيضًا حتى لا يبقى له عذر.. لم أكن أفكر أن بقاءه في البيت ومكوثها خارجه أمر غير جيد في حقه.. كنت غبية وسطحية التفكير..

إنه حتى الملابس أسألها عنها ماذا ستشترين للعيد؟!. ومن أي محل؟! لا.. إن هذا يا بنتي لا يناسبك.. لم يكن هذا في السابق من لباسك، سوف أشتري لك فستانًا من ذلك المحل لقد رأيته وأعجبني.

إن بإمكان زوجها أن يشتري لها فستانًا بثلاثمائة مثلًا لكنها كانت تلبس ملابس باهظة الثمن سابقًا لذا يجب أن تستمر على حالها ولا تشعر بتغير حتى لا تنكسر نفسها.

لقد وقفت بشدة في وجه زوجها حين طلب منها أن تترك الدراسة .. الشهادة سلاح.. لا يهمك ما يقوله زوجك عن الراحة النفسية، وعن الاستقرار الأسرى.. سوف أسهل كل الأمور.. الغداء سأصنعه لك.. والخادمة تكون عندك ثلاث مرات في الأسبوع.. والعشاء مرة من البيت وأخرى من المطعم.. ووقت الاختبارات تعالي عندي.. لا تتركي الدراسة مهما حدث ويجب أن يقتنع زوجك بهذا.

إن حبي لابنتي ودلالي لها جعلني عمياء عن مصلحتها، صماء عما ينفعها.. لقد اعتادت علي في كل شيء، واعتمدت علي في أدق الأمور، ست سنوات عمر زواجها، أنا التي أشتري لها الملابس، واشتري أيضا لأبنائها..لم يعد زوجها يهتم بتوصيلها كثيرًا فالسائق كفاه هذه المهمة صارت ابنتي مشتتة، ضعيفة الشخصية، عديمة الثقة في نفسها، لم تشعر يومًا باستقلالها، ولم تشارك في صنع كيانها، حطمتها حيث أردت إسعادها، لم أستوعب ذات يوم أن ابنتي التي هي جزء مني لابد أن ينفصل عني ويستقل بذاته.

لم أدرك أن سعادتها في إرضائها زوجها، وأن سعادتها أن تعيش حياتها كما تناسبها.. حياتها التي تبنيها مع زوجها لبنة لبنة.. يختلط فيها طعم الكفاح مع حلاوة الصمود.. حياة تخطو مرة وتتعثر مرة.. وفي كل مرة تتعلم فيها درسًا.. هذه الحياة التي يعيشها معظم الناس فقدتها ابنتي وفقدت معها لحن الحياة الجميل.. كم آسف لأجلك(*).

«أمك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

جزاء التربية والإحسان

لقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وليس لأحد فضل علينا مثل والدينا، فهما الأحق بكل الحب والاحترام، سواء في حضورهما أو غيابهما، ومن حب الوالدين واحترامهما ذكر محاسنهما وإبراز معروفهما وكتم السيئ من طباعهما حتى لو كان صغيرًا فهما بشر ولابد أن يخطئا.

ولكن يبدو أن الوضع عند البعض مختلف، فهم يكتمون الحسن ويظهرون السيئ، ولوالدي معاناة كبيرة مع بعض إخوتي، فهذا شاهين دائمًا يجعل من والدي مصدر طرفه ونكاته عند أبنائه وزوجته فهو يقلّده في مشيته وسعاله، ويعاتب ابنه مصطفى حين يرى ثيابه متسخة يقول له: صارت ثيابك مثل ثياب أبيك سعيد لا يغيرها إلا كل أسبوع.

ونوال هداها الله بعد أن تزوجت نسيت أن أمي مكثت السنين تربي وتعلم وتنظف وتتعب وتشقى لنعيش ونكبر ونسعد فهي دائمًا تقول على مسامع والدتي وفي حضورنا: إن أم زوجي طاهية ماهرة طعامها أحسن من طعامك، وطريقة عملها للفطائر تختلف عن طريقتك.. صراحة فطائرها ألذ وتقول أيضًا: ما شاء الله على أم زوجي تهتم ببناتها ليست مثل أمي دائمًا مهملتنا.. وهكذا هي دائمًا تمتدح أم زوجها وعمته وخالته وتفضلهم على أمي في حين لا تسمع أمي منها إلا التحقير والازدراء وكأن أمي بلا إحساس..إنها تصمت فعلًا وتبتلع الكلام على مضض، إن نصيب والدتي من الشكر والتقدير وذكر الجميل شبه معدوم.

«فسليمان» أكبرنا دائمًا يذكر لنا من حياتهم في الماضي ما يجعل صورتهم تبدو غير جيدة، وينسى أنهما عاشا زمنًا غير زماننا قل فيه الوعي والفهم، وكانت لهما أنماط معينة

تفرضها عليهما طريقة حياتهما كما أنهما لم يعرفا بعد أبجديات التعامل مع الحضارة والتقنية ربما أفهم هذا كله ولكن هؤلاء الصغار أبنائي، أبناؤك، أبناء إخواني الآخرين لا يعرفون ذلك جيدًا فيجعلون من هذه المواقف التي تحدث في ذلك الوقت كل يوم مجالًا للسخرية والتهكم بوالدتي والتندر بها، بل إنني أكثر من مرة وفي مناسبات عدة أسمع هؤلاء الصغار يقصون هذه القصص للتسلية على أقاربهم وأبناء جيرانهم وهم يتضاحكون.

أنتم تعلمون أن مستوى النظافة في ذلك الزمن لم يكن كما هو الآن فما الداعي أن تتبادلوا حكايات حولها كانت تحدث أحيانًا من والدي ومن كثير ممن عاش زمنه، ثم ما الذي ينشده سليمان حين يقول لأبنائه: إن والدي كان طيبًا يعني مغفلًا وأنه كان يستطيع اللعب عليه وأخذ بعض القروش منه لشراء مشروب بارد.. موقف عادي ولكن سليمان حين يقصه يجعل من نفسه بطلًا ومن خصمه غبيًا مغفلًا.

ما الصورة التي في ذهن أبنائنا عن والدي ووالدتي؟! إنه بفضل هذه القصص والحكايات والمقارنات التي تعقدونها في كل جلسة لنا صارت والدتي امرأة مع الأسف متخلفة لا تفهم في النظافة والطبخ شيئًا همها النوم تهمل أبناءها الذين هم نحن...وأنها أيضًا تسيطر على والدي وأن كلمتها نافذة!!.

ووالدي الذي هو جدهم.. طيب، مغفل لا يفهم ما حوله جيدًا ويمكن اللعب عليه وخداعه بسهولة.!!!. لا تقولوا: لقد بالغت... إن هذا هو ما استشفه من حديث هؤلاء الصغار وتعليقاتهم المتكررة.. إن هذه هي الصورة التي ينقلونها لأقرانهم حين يفاخرون بأجدادهم.

إن هذا ليس من البر في شيء.. إنه حتى وإن كسوت والديك وأهديتهما وقبّلت رأسيهما وأنت بهذه الحالة من ذكر مساوئهما وتشويه صورتهما فلست على خير أبدًا.

إنه لا يحق لي بعد اليوم أن أتساءل: لماذا أجد نوعًا من الاحتقار والازدراء لأمي، من بعض زوجات إخواني خاصة شاهين وسليمان فالسبب بات واضحًا.

ونوال هي أكثرنا شبهًا بوالدتي شكلًا وطباعًا ومع ذلك هي أكثر سخرية منها.

هم طبعًا لا يرونه كما أراه وإنما يقولون: نمزح وننكت مع أمي ومع أبي ولكن ما هكذا يكون المزاح وليجعل كل واحد منكم نفسه مكان والدي ثم ليحكم ويقرر بعدها أن هذا الفعل أعظم من قول أُفٍّ لهما.

فهل هذا جزاء إحسانهما وشقائهما ومكابدتهما الصعاب من أجلنا، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!! هذا ما أتمناه(*).

«أختكم»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

الوفاء للأخت المربية

بعد وفاة والدتي – رحمها الله – لم يعد لي معيل بعد الله سبحانه سوى أختي لطيفة كنت صغيرًا فربتني واعتنت بي وجعلتني واحدًا من أبنائها أجلس معهم على سفرة الطعام وأنام مع الأولاد في غرفتهم وجدت منها ومن زوجها كريم المعاملة وطيب العشرة جعله الله في ميزان حسناتها.

سارت الحياة على طبيعتها لم ينقصني شيء، تخرجت من الجامعة والتحقت بإحدى الوظائف الجيدة وبعد أن جمعت مبلغًا لا بأس به قررت الزواج، فبحثت لي عن الزوجة التي أريد، سألتني عن كل صغيرة وكبيرة بشأنها، عاشت معي كل لحظة بجميع جوارحها، سهرت حتى أعياها السهر وطافت الأسواق تكمل ما نقص وأشرفت على تأثيث البيت وترتيبه بنفسها، خاصة المطبخ ومجلس النساء.

أتعبتها كثيرًا وحملتها ما لا تطيق وهي مع هذا كله صابرة، باسمة تدعو الله لي بالتوفيق والذرية الصالحة، أنت سندي بعد الله، أنت ساعدي الأيمن هكذا تردد دائمًا.

فرحتها بي كفرحة أم بولدها، وحبي لها كحب ولد لأمه، هكذا أشعر نحوها، لها علي فضل كبير كفضل أمي غير أنها لم تلدني، كان الله في عوني لأرد لها الجميل فهي الآن كبرت وفي حاجة إلى المساعدة والوقوف بجانبها بعد وفاة زوجها غفر الله له.

إن أختًا كهذه جديرة بالاحترام والحب مني ومن زوجتي أيضًا التي ما إن شَرَّفت بيتي ورأت معاملتي أختي حتى شبت نار الغيرة في جوفها وأكلت قلبها.

تردني بين يوم وليلة أن أنسى ما فعلته هذه المرأة العظيمة معي طوال ربع قرن تقريبًا، تريدني أن أمحو الماضي الذي جمعني بها؛ إنها أولًا أختي ولها علي حق الأخوة،

وثانيًا هي أكبر مني سنًا وديننا حثنا على احترام الكبير،وثالثًا إن جميلها عليَّ يأسرني. يأبى أن يغادر قلبي وعقلي.. وكيف ذاك؟.

هل تودين يا زوجتي أن أكون لئيمًا؟ ناكرًا للجميل؟ جاحدًا لفضل الآخرين علي؟ إن كانت أختي هي الرقم واحد في هذا السجل الأسود فستكونين حتمًا الرقم اثنين أو ثلاثة، لكنني - ولله الحمد - لا أملك سجلات للجحود والنكران وسأظل وفيًا لأختي مادامت بي الحياة.. سأكون لها الابن البار بأمه حية وميتة.

حضنها كان مأواي الدافئ حين فقدت الحضن الحقيقي، عيناها كانتا تشع نورًا في ظلام تلك الأيام الحالكة، صوتها أشعرني بالأمن، في زمن غاب فيه الأمن من حياتي إلى الأبد، إنك يا زوجتي الكريمة لم تذوقي طعم اليتم!!.

لو كنت تسيرين في صحراء شاسعة، رمالها تتوهج من حرارة الشمس المحرقة ليس فيها أثر للحياة، ولا مكان آمن يؤويك.. الرمال من كل جانب تمتد إلى ما لا نهاية، أمواجها تتحرك تجاهك كأنما تود ابتلاعك.. رعب وخوف وإحساس بالضياع والغربة.. وهي لحظة كدت أن تصافحي الموت جاءك من مد إليك حبل النجاة وطوق الأمان وانتشلك من موت قريب وسقاك شربة الحياة ونقلك إلى عالم مزهر يفيض بالحياة.. أتراك تنسين فضله وتجحدين معروفه؟!!.

ذاك هو اليتم بعينه لم أكن صغيرًا حين ماتت أمي كنت في الخامسة تقريبًا أدرك جيدًا ما حدث ذلك اليوم، ولن أنساه ما حييت. فدعي عنك هذه الوساوس وأحاديث الشيطان ولا تسمي هذه المساحة الرحبة التي منحتها لأختي تدخلًا في حياتنا فأنا الذي أعطيتها مطلق الحرية في هذا كله، فهي التي ستسمي مولودنا الأول إن كان ذكرًا وهي لطيفة إن كانت أنثى.

هل تصدقين لو قلت لك: إنني طلبت منها ألا يكون اسم زوجتي لطيفة فأنا أحب أن أسمى ولو وقتيًا أبو لطيفة.

إنني حين أطلب منها طبقي المفضل فليس لأنك لا تجيدينه، ولكن لأنه من يديها ذو نكهة خاصة ممزوجة بالتضحية والوفاء. وإذا استشرتها في شيء فلا يعني انتقاصك أو الحط من رأيك، بل لأنني أريدها أن تعرف أنني مازلت عبد العزيز لم ولن أتغير. ولا يهمني كثيرًا إن كان أبناؤها لا يتعاملون معها بمثل هذا البر والصلة كما تقولين، فلكلٍّ وجهة هو موليها.

وأنا مع هذا كله أشعر بتقصيري تجاهها، فلا تغضبي حين تطلب مني أمرًا أسارع بتنفيذه بينما لا أفعل معك الشيء نفسه، ذلك أنها بمعروفها علي وحسن خلقها وصبرها وعدم مِنَّتها تمكنت من قلبي وملكته، فالأولى لك أن تتعلمي منها لا أن تعلميها كما تقولين وأن تكسبيها لا أن تعاديها حتى تكسبي زوجك وحبه، ولا تساوميني أبدًا يا أنا يا أختك!! طبعًا أختي لاشك فهي درة لا تعوض.. هل أدركت ووعيت الآن؟ أرجو ذلك وأتمناه من قلبي(*).

«زوجك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

طاقات معطلة ومواهب مكدسة

في زمن مضى وعلى مدى أربع سنوات متتابعة ولدت ثلاثة أولاد ذكور فرحت بهم كثيرًا، وكنت فخورة بنفسي خاصة أنهم جاءوا بعد بنات، ومن فرط حبي لهم وخوفي عليهم كنت أخفيهم عن عيون الناس ولا أخرج بهم جميعًا، شعرت أني ذات حظوة عند زوجي، وعشت أتحسس مستقبلهم وأرسم لوحات رائعة لحياتي معهم سيكبرون ويعملون ويتزوجون ويلدون الأولاد والبنات، سيزورونني ويغدقون علي الهدايا، سيعتنون بي ويسألوني عن حاجتي، سأجلس عند هذا شهرًا وعند الآخر شهرًا، سيسافرون بي، وسيكونون لي ظلًا يقيني حرارة الأقدار ويدًا تحنو علي عند الفاقة، سيكونون شيئًا عظيمًا أفتخر به، يا لها من لحظة جميلة أنتظرها بكل شغف.. ولكن!!.

ليتني لم أبنِ هذا الحلم الوردي الجميل، ليت أحدًا أيقظني منه قبل أن أصحو فزعة على حالهم المؤلم. مات والدهم، وتزوجت البنات، وعشت مع الأولاد أتقلب في نعيم هذا الأمل المشرق.. هذا الأمل الحلم الذي جعلني أقف صامدة وفي وجه الصعاب، هذا الأمل الحلم الذي جعل وفاة والدهم أهون علي وقعًا مما لو كنت أعيش خارجه.

كنت كمن صحا من سكرة، أو فاق من إغماءة ما هذا؟ أين أنا؟ أين كنت؟ وماذا وجدت؟. ثلاثة شبان في فورة الشباب وقمة الحيوية يتسكعون في الطرقات نهارًا ويرتمون أمام الفضائيات ليلًا لماذا؟! لأنهم بلا دراسة، بلا عمل، بلا حضانة، تخرج عماد من الثانوية بتقدير جيد.. حمل ملفه وقطع المسافات طولًا وعرضًا دون فائدة لم يجد أحدًا يقبله... انتظر عامًا كاملًا، ثم تخرج خالد وطاف الاثنان معًا وأيضًا دونما نتيجة، وحين تخرج كمال من الثانوية كانت نسبته تقل عن أخويه فاختصر المشوار ومكث في البيت.

ثلاثة شبان يبعثون الأسى في نفسي حالهم مع التخصصات والوظائف كحال القائل: «قلبي على الوظيفة انفطر وقلب الوظيفة عليَّ حجر».

في البدء كنت معهم أشد أزرهم وأحثهم على المضي فيما خططوا له، يجب أن تكون وظائف أبنائي بمثل ما حلمت به لا يمكن أن أقبل تنازلًا عن هذا، ولكن حين وجدت الأيام تمضي بسرعة والفرص تكاد تتلاشى أخذت زمام المبادرة وصرت أحفزهم للبحث عن وظيفة... أية وظيفة طالما أن حلم الدراسة تبخر!!.

كنت أجلس معهم لتقليب صفحات الجرائد للبحث عن عروض وظيفية.. وأجعل الهاتف بجانبي أضرب الأرقام أتصل وأسأل وأسهِّل لهم المهام ولكن لا جواب.. وظائف بمميزات مغرية لكنها ليست على مقاسهم، وأخرى تناسب مؤهلاتهم ولكنها حجزت لغيرهم!! وثلاثة بمواصفات تعجيزية تجعلهم يتأففون قهرًا وغيظًا.

لقد بدأ أبنائي يستعذبون الرقاد والكسل، كلما مر يوم ثلم من جدار الأمل ثلمة، صار حديثي لا يعني لهم شيئًا ولا يدل على شيء، أصبحوا لا يأبهون بالجرائد بل لم يعودوا يشترونها، أحيانًا تحضرها لي ابنتي فأقلبها على نار الرجاء، وحين أرى وجوهًا كادحة لشباب في مثل أعمارهم حاربوا اليأس وكسروا الحاجز وانخرطوا في وظائف مهنية مختلفة أحترق حسرة على حال أبنائي وأبكي ألمًا لأجلهم لماذا لا يكونون مثلهم؟ فمجالات الرزق واسعة والعمل في كل مكان ولكن أولادي يريدون وظائف معينة وعلى مقاسهم.

كلما دخلت الملحق وجدتهم يتكئون على المساند يلعبون الورق أو يتابعون البرامج أو يغطون في نوم عميق!!. أخشى إن أكثرت ملامهم أن يملوا من البيت ويهجروه إلى حيث لا تُحْمد العاقبة، وأخاف إن تركتهم على ما هم عليه أن يعتادوا

الخمول ويلتذوا للراحة، صرت أحرمهم من المصروف بل إني أعجز عن مصروفهم أحيانًا كثيرة، فزوجي لم يدع شيئًا يذكر، وأختهم المعلمة تمد يد العون ولكنها لا تفي بكل شيء، وهم معاندون لا يرضون بأي وظيفة وليست أي وظيفة ترضى بهم.

صاروا متوترين بدأت أحس برائحة الدخان أحيانًا في ثيابهم، وأخاف من أمور أعظم!! تسوؤهم جيوبهم الخالية، والسيارة التي اشتريتها لهم لا تليق لمقامهم، أشعر بمرارة في كبدي، وضيق في شراييني وصداع مقيم في رأسي كلها نتيجة هذه الطاقات المعطلة والمواهب المكدسة.

حين أسترق النظر إليهم في الملحق من وراء النافذة وهم غارقون في لعب الورق مع رفاقهم تنحدر من عيني دمعتان ساخنتان تحرقان قلبي الموجوع دمعة أسى على حالهم، ودمعة ندم على نفسي التي فرحت بمقدمهم!! كان الله في عوني وجبر مصيبتي(*).

«أمكم»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

أمي الثانية لا أنساها

كنت أظن أن تعامل أم زوجي معي في بداية حياتي الزوجية نابع من المجاملة، فلم يمض على زواجي سوى بضعة أشهر مازلنا نتعاطى الأمور فيما بيننا بشكل رسمي.

وذات يوم كنت أتجهز لحضور حفل زفاف ابنة خالي، كانت أول حفلة أحضرها بعد زواجي لذا قد تأهبت لها بشكل جيد، ولما حضر زوجي من العمل أخبرته وذكرته بالموعد ولكنه بدون مقدمات فاجأني برفض الذهاب للعرس.. لماذا؟! بادرته بالسؤال.. فأجاب (ليس من الداعي اليوم تخرجين) وبدأت الشد والجذب في الحديث وجن جنوني فصرت أسب وأشتم دون إدراك مني لما يحدث، فخرج من البيت غاضبًا وجلست أبكي بحرقة.

ولم أشعر إلا بأم زوجي تطرق علي الباب بلطف.. أدخلتها وأخبرتها بما حدث فوجدتها كالبلسم الشافي، قالت لي: إن رضا زوجك مقدم على كل شيء، وأنه بإمكانك أن تتفاهمي معه دون اللجوء إلى الصراخ والسب، قالت لي عن الرجال: لا يرضخون بالقوة، بل بالحب والتفاهم والكلمة الطيبة، وقالت أيضًا: إن حمزة ربما كان متعكر المزاج لأنه لحظتها كان عائدًا من العمل، فالواجب علي أن أؤجل الحديث لوقت أنسب وقالت كلامًا كثيرًا جميلًا كان له أكبر الأثر في تهدئتي، واستطاعت بحكمتها أن تستل وسوسة الشيطان من صدري، ثم إنها دون أن أعلم كلمت حمزة وطلبت منه أن يأخذني لهذا الحفل وبالتأكيد أنها أقنعته بأسلوبها الجميل.

كان هذا هو الموقف الأول لي مع أم زوجي ولقد تبعته مواقف وأحداث جعلتني كلها أقف احترامًا وتقديرًا لهذه المرأة الرائعة... إنني على مدى ثمانية عشر عامًا هي عمر

زواجي أسير بمشورتها واعتد برأيها، ولم لا؟ وهي التي تقول: إنني خامس بناتها، لقد صرت أستشيرها في كل ما يعرض لي فلا أجد عندها إلا رأيًا سديدًا ومنطقًا حكيمًا، لقد حمت زواجنا من الانهيار بنصائحها القيمة، علمتني كيف أخفف من حدة مزاج زوجي وكيف أمتص غضبه، وكيف أكسب قلبه، وبالمقابل علمتني كيف أكون قوية أمام المشكلات وكيف أساند زوجي وأقف إلى جواره في الأزمات.

كانت تثني علي كثيرًا أمامه، تمتدح ذوقي وخلقي وطهيي، دخلت بيتها صغيرة جاهلة، إذ كان مرض أمي النفسي عائقًا لها عن تعليمنا شفاها الله فعدتني واحدة من بناتها، كنا ندخل المطبخ سويًا فتعلمنا وتقف معنا وتشجعنا حتى صرنا طاهيات ماهرات.

كم كانت تقدر ظرف والدتي، فكانت تنصحني دائمًا أن أجعل حياتي الزوجية ملكًا لي وحدي وسرًا خاصًا بي قالت لي: «إذا احتجت أي شيء قولي لي أنا مثل أمك وأنت مثل بنتي، أمك الله يعافيها يكفيها اللي فيها».

حين أكون متعبة تأتي لي بالطعام والدواء وتجلس بجانبي وتخفف عني، لا يثنيها عن ذلك ألم مفاصلها.. وحتى حين أرقد في المستشفى لا يرافقني سواها تهتم بالمولود وترعاني بحبها وحنانها وحين أخرج إلى البيت لا تنفك عن زيارتي وإرسال الطعام لي.

عشت معها سنوات من أجمل سنوات عمري وحين خرجت من عندها آثرت السكن بقربها إذ البنت لا تستغني عن أمها.. وعن نصائحها.

مازالت أم زوجي هي تلك المرأة الطيبة الحنون التي أعطتني حبها، وحفظت لي قيمتي إنها لا تبالي بالرسميات، فهي التي تتصل بي لتسأل عني وعن الأولاد وتخبرني بما استجد وبماذا تفكر. أحيانًا أسبقها إلى الهاتف وفي الغالب هي التي تسبقني إليه.

أسألها فيما يشكل علي في تربية أبنائي.. أحادثها عن مستوياتهم في المدرسة... عن الصعوبات التي تواجهني مع بعضهم.. وحتى عن الخلافات التي تدب بيننا أنا وزوجي أستنير برأيها وأعتز بمشورتها. إنها تتصل أحيانًا لتسألني إن كان يوم الأحد مناسبًا لي لزيارة الوالدة وحين يفكرون في الاجتماع تتصل لترى إن كان الموعد يناسبني أم لا؟.

تشاورني في الزيارات وتعلمني بنيتها في ذلك، تحترم أهلي كثيرًا وتقدم خدماتها لأمي خاصة في أيام تعبها.. تزور معي أخواتي وتستجيب لدعواتهن، وترسل لهن الهدايا إن لم تستطع الحضور.. وهي تتصل بأهلي لتبارك بنجاح أو زواج أو تشاركهم الفرحة.

هي هكذا دائمًا معي، وحتى مع زوجات أبنائها الآخرين تحب لهم ما تحب لبناتها وتحث أبناءها على احترامهن وتقديرهن، وتراعي مشاعرهن، لذا فهي محط اهتمامنا جميعًا وموضع رعايتنا.. ولم لا إنها أمي الأخرى بلا شك(*).

«زوجة ابنك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com

شتان بين الثرى والثريا

حين أبدى معتصم رغبته في الزواج كنت سأبدأ رحلة مضنية في البحث عن عروس مناسبة لولا أن أشارت علي إحدى بناتي: لمياء أخت فردوس زوجة ولدي عبد الكريم (إن البيت الذي تخرجت منه فردوس لن يعجز حتمًا عن تخريج مثيلاته وها هم أخواته مع حمايلهم لا يذكر عنهم إلا كل خير)، قلت: نعم الرأي ووافق معتصم مباشرة. إن فردوس قد شملت الجميع بكرم خلقها وحسن أدبها. عشر سنوات وزيادة لم نر منها إلا الوجه البشوش والسن الضحوك والعمل الدءوب واللسان الصموت. تعجبت كيف عميت عيوني عن لمياء؟!!.

تقدمنا لهم ووافقوا مباشرة وتم كل شيء بسرعة، فالمعرفة القوية بيننا والصورة الحسنة لكل منا أمام الآخر ألغت كل العوائق.

جاءت لمياء وسكنت في الجناح الخاص الذي كانت أختها تشغله قبل أن تستقل في منزل خاص قريب منا، كانت فرحتنا بها كبيرة فأريج أختها مازال يعطر البيت.. ولكن.. ما بأس... لكن الآن.. كان الفرق بينهما كبيرًا كالفرق بين الثرى والثريا.

فردوس كانت تسبقني إلى المطبخ كل صباح لتجهز الإفطار لا تنتظر في غرفتها حتى أضغط عليها زر السنترال لأناديها مرارًا قبل أن يبرد الطعام كما تفعل لمياء.. كانت ترفض أن أحضر لها الطعام في غرفتها يوم كانت عروسًا ولمياء لم تمانع لمدة شهرين من تناول طعامها في غرفتها مع أنه ليس في البيت نساء سواي وعبير أصغر بناتي.

عشر سنوات مع فردوس لم تنس أن تسألني كل يوم عن رغبتي في الغداء.. وحين تجتمع العائلة تبرد قلبي بشغلها وحتى في الفترات التي كنا ننتظر فيها قدوم الخادمة الجديدة كانت تقوم بكل أعمال البيت.. الطبخ والغسيل والكي والكنس وخلافه حتى دورة المياه التابعة لغرفتي وكذا غرفتي هي التي تقوم بتنظيفها وترتيبها.

(سبحان الله خلق وفرق) لمياء تنام حتى بعد الظهر، ثم تصحو لتعانق الهاتف، ثم تنزل وقد جهز الغداء، الشكوى لله صرت أرضى بطبخ الخادمة منذ أن خرجت فردوس من عندنا فما عاد باليد حيلة تفتح القدور ثم تعود إلى غرفتها.. أنتظرها على المائدة نصف ساعة حتى تتكرم علي بالنزول فلا تفعل.. أمل وهي لا تمل من تكرار الموقف، أضغط عليها الزر فتبلغني أن ليس لها رغبة في الطعام، وأحيانًا والله أنتظرها ثم أفاجأ بالخادمة تخبرني أنها خرجت بعد صلاة الظهر لأهلها، لا علم ولا خبر ولا حتى تقدير لمن هم معها.

فردوس حتى بعدما خرجت لم نفقدها كثيرًا زيارتها لا تنقطع وكذا هاتفها وأطباقها اللذيذة التي نحبها وهذه مرت ستتان وزيادة ولم أرها تدخل المطبخ مرة واحدة.

لمياء مع الأسف تنظر لأختها فردوس على أنها طيبة زيادة على اللزوم وأنها يسهل اللعب عليها واستغفالها، تحس أن أختها ذليلة مهانة وتريد أن ترينا أنها من نوع آخر يصعب ترويضه أو تذليله، ما علمت أن أختها تفعل ما تفعله برضا وقناعة لا تواجه ضغطًا من أحد، فعبد الكريم كان أكثر أبنائي تمردًا علي وأكثرهم عنادًا لي ولوالده،كنا نقول: من يصبر على عبد الكريم وشقاوته.

كان بإمكان فردوس أن تفعل مثلها وأكثر لو كان لها عقل كعقلها، لكنها كانت من معدن نفيس ودر ثمين.

لمياء تخرج كل يوم تتمشى مع زوجها أو صديقاتها في الحدائق والملاهي وحين نجتمع في استراحة أو في البر تتعذر بألف حجة وحين تعجزها الحيلة تقول: أمي قاعدة في البيت ما عندها أحد سأجلس عندها ونتفاجأ بفردوس وقد علت وجهها الدهشة والضيق في ذات الوقت حين تعلم بخبر لمياء.

ليس هناك حق للصغير ولا الكبير، تخرج متى شاءت وتعود متى شاءت، زوجها ملك لها تديره بالريموت.. في رمضان الماضي كنت جمعت البنات والأولاد على الفطور.. أعلمتها قبل يومين ولم تبد رأيًا، كنا في العشر الأواسط، نزلت قبل أذان العصر عجنت اللقيمات وقالت للشغالة لقميها. وبعد صلاة العصر نزلت وقد اتشحت بعباءتها ترافق معتصمًا، لأن عندها غرضًا مهمًا في السوق. خرجت ولم تعد إلا قبيل أذان المغرب بدقائق.. لو كان العيد غدًا لعذرتها ولكن..

أين أيامك يا فردوس.. فطول رمضان تنزلين من بعد صلاة الظهر ولا تطلعين من المطبخ إلا مع أذان المغرب.. محشيات ومعجنات وحلويات وعصائر وشوربة ما نشبع منها.

قلت للبنات: يمكنها تتضايق من اجتماعكم دائمًا عندي.. عملنا دورية شهرية، الكل يحضر والكل يساهم وهي كالغريبة تأتي أحيانًا بعد صلاة المغرب ساعة بالكثير كأنها على جمر ثم تخرج إلى أهلها أو صديقاتها أو إلى...

إني آسي لحالها كيف ستربي أبناءها وماذا ستعلمهم وهي تحمل عقلًا صغيرًا بهذا الحجم تنظر إلى الإحسان بأنه هدر للكرامة، وللطيبة بأنها غباء وبلادة.

ماذا أقول عنها غير أننا توهقنا كثير أصابع اليد ليست واحدة، هديتها أستحي أن أقدمها للشغالة وفردوس كانت تأخذني للسوق لأنتقي كسوة العيد.

إن السعة في الرزق وصلاح الأبناء باد على فردوس وعيالها، فماذا يا ترى سيبدو على لمياء وعيالها، اللهم أهد ضال أبنائي ووفقهم لرضاك ودلهم على صلاحهم وفلاحهم(*).

«خالتك»

(*) مجلة «الدعوة».

شهامة زوج بمعنى الكلمة

المواقف الصعبة تكشف لنا معادن الرجال، وعمر أحد هؤلاء، زوجناه ابنتنا قرة أعيننا عروب فكان واحدًا منا في السراء والضراء.

عمر لا يحب الظهور ولا يعجبه المديح، يفعل الخير ابتغاء الأجر من الله، يعاملنا أنا وزوجي كوالديه، في كل مرة يغمرنا بمعروفه حتى أثقلنا الدّين ولكن له منا الدعاء في كل وقت وحين. ليس في أنسابنا مثله لا الذين قبله ولا الذين بعده، ومع هذا تلومني بالبنات على حبي له وتفضيله على غيره وإن له مكانًا لا يرقاه سواه.

لم يكد يمضي على زواجه من (عروب) ستة أشهر حتى دخل والدها المستشفى إثر أزمة قلبية مفاجئة، فرافقه ابني (بلال) وكان ابني البكر في بداية ابتعاثه للخارج للدراسة، فخلا البيت من الرجال، وكان عمر كابني يمر علي كل صباح ومعه الخبز يتفقد حاجتي ويحضر معه بعض الأغراض التي يتوقع أن أكون في حاجة إليها، يزور أبا عبد الله في المستشفى ويسأل الأطباء عنه ويطمئنني في الهاتف على حالته ويأخذني لزيارته أنا والبنات، كل هذا لم يكن بإيعاز من ابنتي أو تذكير منها، بل ربما كان خيرًا منها في هذا الجانب، إنه يأخذ دور المرافق عن (بلال) حتى يتمكن من الخروج للراحة أو الاستحمام أو قضاء حاجة لا يقضيها سواه.

يقسم علي ألا أحتاج إلى شيء وهو موجود، يسألني عن حاجة البنات للمكتبة أو أغراض مدرسية: ناقصكم شيء؟! دائمًا يسألني.

وحين يحضر معه شيئًا يرفض أخذ قيمته، لقد عودني على رفع الكلفة معه وصار كابني أو ربما أكثر والله، أحدثه عن حاجتي ورغباتي وأمنياتي، كما أتحدث معه عن حاله وعن أخبار أهله سيان.

يوم زواج ابنتي كان يومه، لقد وقف معنا منذ البداية، سأل عن الخاطب واستقصى عن حاله، أبو عبد الله أنهكه المرض وبلال لم يكن كفئًا للسؤال، كان شابًا ونظرته تختلف عنا كثيرًا وعبد الله أخذته الدكتوراة، وقف عمر معي في تجهيز البنات، يأخذنا للسوق أو المشغل وهل هذه المشاوير تنتهي؟ إنهن أصلحهن الله لا يخجلن من إملاء طلباتهن، يذهبن للمشغل ثلاث أو أربع مرات من أجل فستان واحد، لذا فقد مل (بلال) من كثرة التردد وفي كل مرة نطلب منه ذلك يحدث شجار ينتهي بخروجه من البيت: خذوا لكم تاكسي.. هذا الحل في نظره؟!

فيضطر والده المريض أمام زعل البنات لمرافقتنا في سيارة أجرة إلى السوق أو المشغل. وعندما يعلم عمر يغضب ويقول: «كان عليكم أن تتصلوا علي أنا موجود في البيت،إذا ما نفعتكم الحين متى أنفعكم، وبعدين أنتم في حسبة أهلي، وأنا ما أرضى أهلي يركبون مع تاكسي وأنا موجود!!» الله يسلمك ويخليك لعيالك ولوالدتك.

مثل ما قلت: إن زواج ابنتي الصغيرة كان يومه، استيقظ في الصباح الباكر (شايل هم جعله يسلم) مر على المنزل وأكد على الطباخ الشغل، في خاطره أن إخوانها مشغولون معها وما عندهم وقت، هو طيب ويحب الخير وإلا الخطاب واضح من عنوانه، أتصل علي يسلم ويسمعني الكلام الطيب وقال لعروب (اسأليهم إن كانوا يريدون المشغل اليوم) جزاه الله خيرًا والله لو كان زواج أخته لكنه دائمًا يقول: إنهم مثل أخواتي. وقفته معنا ما تنسى.

(عمر) ليس ضعيف الشخصية أو أنه تبع زوجته، لا والله بالعكس هو الذي علم (عروب) اللباقة وحسن التعامل مع الآخرين، يجعلها تزورنا مرتين في الأسبوع وفي كل مرة تجيء ينزل معها يسلم علينا ويقبل على رأس خاله ويسألنا عن حاجتنا دائمًا يحب أن نزوره ويجيء يأخذنا لبيته ويقعد معنا ويصب لنا القهوة بنفسه.

وفي كل مرة تجيه أمه يناديني وفي الغالب إنه يجيء يأخذني وأحيانًا يطلع بأمه للبر ويمرون علي يحب يوسع صدري ويبر بالكبار والعجائز يقول: أنتم ريح الجنة، أنتم طريق الجنة.

كم مرة احتجت أصلح شيء في البيت أجده جنبي، يوم تقدمنا بطلب شغالة ما كان في البيت غرفة مجهزة لها، أحضر معه عاملًا وبنى غرفة في السطح، كل يوم من الصباح يجيء هو والعامل ويجلس عنده حتى ينتهي من عمله، وكأنه ليس عنده أشغال ثانية.

كم من مرة ومرة، ومرات لا تحصى، العيال يتعذرون بأشغالهم كأن الناس غيرهم ما عندهم أشغال، ألقى (عمر) في وجهي وتحت يدي يقدم لي المعروف بدون منٍّ، يعمل بدون كلل، يبذل دون طلب للشكر.. أمه تقول هذا طبعه، من كان (صغير) يسمونه تحت الطلب وكسبه الطاعة احتساب الأجر فصار خيرًا على خير اشترى لي مسجلًا صغيرًا وبدأ يمدني بالأشرطة النافعة فكان هذا أعظم شيء قدمه لي.. نور الله بصيرته وجعله بارًا بوالدته وأقر عينيه ببر أبنائه وصلاحهم إنه على كل شيء قدير وجزيت خيرًا(*).

«أم زوجنك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

سجينة العادات والتقاليد

متى أصبحت الحياة سجنًا مؤبدًا فإنه يصعب العيش فيها، بل ربما صار باطن الأرض خيرًا من ظاهرها ألف مرة. حكمة بليغة لم تصدر عن امرأة مسنة مارست الحياة وخبرت دروبها، بل عن فتاة لم تبلغ الثلاثين بعد. فتاة سجنتها التقاليد البالية وأسرتها العادات الجاهلية، فتاة ولدت ليرتبط مصيرها بشيخ آخر لسبب واحد فقط وهو أنه ابن عمها، ليس كفؤًا، غير متعلم، لا تريده، لا تحبه، لا تتمناه زوجًا أو حتى تشعر أنه كأخيها كل هذا مردود عليها ليس لها زوج غيره فلانة لفلان هكذا منذ الطفولة.

نشأت في بيئة لا تعرف حقًا لأحد في اختيار شريك حياته، زوجات إخواني هم بنات عمي، وإحدى أخواتي زوجة لابن عمي الآخر كما أن أمي هي الأخرى ابنة عم لأبي. كنت أشب وأترعرع تحت نظر والدي وعمي، والدي ينتظر اليوم الذي يزفني فيه إلى ابن عمي، و عمي يترقب الفرح بابنه، درست وتعلمت وأنا أناضل في سبيل الدفاع عن حقي الشرعي في اختيار من أريد زوجًا لي.

قلت: انتظروا حتى أنهي الثانوية.. ثم لا زواج قبل الشهادة الجامعية أرجو بهذا التأخير أن يمل ابن عمي الانتظار ويشعر بالنفرة تجاهي ويبحث له عن أخرى ولكن لا مفر. وحين وجدت هذه المماطلة لم تؤثر ثمارها أعلنتها صريحة مدوية: لا أريد الزواج من ابن عمي فكأنما ألقيت قنبلة حارقة؛ والدي تبلبل فكره وتشتت ذهنه واسود وجهه أمام عمي، وعمي أرعد وأزبد وهدد وتوعد، فلقد أتيت منكرًا من القول وزورًا.

أما ابن عمي ذلك الجاهل الجلف فقد حبسني في مداره وقيد حريتي ومنعني من الزواج إذ أن بقاءه دون زواج يعني أنه لم يصرف النظر عني ومازال معلقًا بي وبعبارة أوضح فأنا محجوزة له، فهو ينتظر اليوم الذي يلين فيه رأسي وأعرف فيه مصلحتي.

لم يكن موقف والدي هينًا فلقد غضب مني وهمَّ بمعاقبتي وفرض الزواج علي

لأنني في نظره جاهلة!! علمتني المدرسة قلة الحياء!! لقد ندم كثيرًا أن سمع كلامي وجعلني أواصل تعليمي!! وكان الأولى به كما يقول أن يتركني في البيت أسوة ببنات عمي وأخواتي الأكبر مني اللاتي تزوجن من أبناء عمومتهن دون رفض ولا استنكار. لقد واجهت موقف والدي بموقف أكثر تشددًا لقد هددت بقتل نفسي ليلة العرس أو الهرب إلى حيث لا أدري، ذلك أنني أعلم أن هذه العقول المتحجرة لا تلين لكنها قد تتصدع وتضعف مع شدة الطرق.

هدأت العاصفة نوعًا ما لكنني بقيت داخلها أصارعها وأواجهها بكل حزم.

إن ابن عمي هذا مثل أخي، تربينا معًا في بيت واحد، لعبنا مع بعض، لم أشعر يومًا واحدًا أنه قد يصبح شيئًا بالنسبة لي، ومع كل هذا لو كان كفؤًا وأنا لا أرغب في الزواج منه لما ترددت في الرفض فكيف بي وهو يحمل عقلًا صغيرًا ويمشي بلا هدى يتخبط في تقاليد القبيلة ويحني رأسه لها.

والدي الحبيب.. كيف ترضى أن تقدم ثمرة فؤادك وختام ذريتك قربانًا لأخيك تطلب به رضاه ثم كيف أجبر على الزواج برجل لا أحبه ولا أقبله لمجرد أن هذه هي العادات والتقاليد.

اسمح لي يا والدي.. إن هذه العادات التي تفرضها القبيلة ليست شرعًا يجب الانقياد له ويحرم الخروج عنه، إن هذا ما تعلمته في المدرسة ولم أتعلم قلة الحياء!!.

أبي.. إن السنوات تمضي بعمري، تستل نضارتي، وتسرق بهائي وتكسبني لونًا شاحبًا وأعوامًا عجافًا، وابن عمي يصول في الميدان يستعرض قوته وعنتريته قيدني في زاوية حياته، حرمني الحرية، حرمني الحب، وحرمني الأمومة أيضًا، إلى متى أبقى أسيرة صلفه وجهله؟ متى يفك أسري ويمنحني الحرية؟ متى يرفع عني قيود الحجز والحجر؟ متى أشعر بالحياة يا أبي؟ أخشى ألا أشعر بالحياة إلا حين أفارق الحياة!! وعند الله تجتمع الخصوم![*].

(*) مجلة «الدعوة».

القطار لا ينتظر أحدًا!!

الليلة زواج نجوى، فرحتها فرحتان: فرحة التخرج، وفرحة الزفاف. كلنا متأهبون على قدم وساق نستعد لهذه الليلة ونتضرع إلى الله أن يحفظ نجوى ويبارك لها ويسعدها. حركة غير عادية في بيت الأفراح... البنات اجتمعن وأحضرن المصففة، كل واحدة تستشير الأخرى في فستانها وتسريحتها وماكياجها.. ضحك ومرح وتعليقات ساخرة لابد أن تحدث في مثل هذه الأوقات.

وفي وسط هذا كله كنت أرى شيئًا ما في وجه نادية.. في عينيها... هي ابنتي أعرفها جيدًا. بدور ابنة خالها وهي كأختها الصغرى كانت تذاكر لها دروسها وتساعدها في حل الواجبات. نجوى كبرت وصارت عروسًا.

ونادية؟!! ابنتي أتمت في هذا اليوم عامها الخامس والثلاثين ولم تزل عازبة غادة.. هيفاء لها طلة كالبدر وشعر منسدل خلف ظهرها كالحرير، مؤهل علمي ووظيفة محترمة. والدها رَحِمَهُ اللَّهُ كان غنيًا ترك لنا ثروة كبيرة كفلت لنا بعد عناية الله عيشًا هنيئًا رضيًا. تخرجت البنت المدللة من الجامعة فكانت فرحتي لا توصف؛ من له بنت مثل بنتي؟! جمال ودلال ومال وبهاء. والله لن أزوجها إلا من يليق بها ويحفظها، وبدأ الخطاب طرق الباب.. هذا ليس من ثوبها، وذلك لا يناسبنا مستواه، والآخر تعليمه متأخر وعشرات وظائفهم غير جيدة.

أنا وهي نريد شيئًا واحدًا (الشباب - المال - الشهرة - الوجاهة) ومع كثرة الخطاب بدأنا ندقق أكثر، موقع السكن صار مهمًا ونوعيته، المستوى الوظيفي ومستقبل المهنة، بل حتى الأسماء كان لها نصيب من شروطنا فلقد ردت نادية شابًا كفؤًا يحمل الدكتوراة أو في طريقه إلى ذلك لأن اسمه كان قديمًا جدًا، لم أضغط عليها كنت أنظر لها بشكل آخر.

الخطّاب سحابة صيف أنزلت مطرها ثم ولت، والعمر لا يقف عند محطة معينة وكل شيء يزول لا محالة. من يوقف زحف السنين؟ من يعيدها إلى زمن ولّى حين كان السوق مزدهرًا والبضاعة كثيرة.

ها هي ابنتي تفقد نضارتها يومًا بعد يوم..العمر كالزهرة سرعان ما تذبل ثم تموت.. وهي الآن بين يدي هذه المصفقة تغطي وجهها بطبقات من المساحيق لا أظنها أبدًا كافية لتخفي هذا الألم في عينيها على الأقل عني أنا والدتها..أسى وحسرة على نفسها ممزوجة بفرح لنجوى.. أعلم أنها فرحة لزواج ابنة خالها وهي تدعو الله لها من قلبها أن يوفقها ويسعدها.

نجوى ابنة أخي خير مني وأعقل.. تعرف مصلحة نفسها، لم يغرها الجمال ولا المال ولا العلم (الشهادة) عندما جاءها الرجل الطيب الكفء لم ترده.. هي فرصة قد لا تتكرر وإن كان مستواه أقل ووظيفته متواضعة فلا يعني هذا أنه ليس كفؤًا. الآن لم يعد لفارس الأحلام في رأس نادية صورة واضحة ولا حتى في رأسي صرنا نراه (ربما) شيخًا على عصاه، أو زوجًا لثلاث نساء، أو حتى عقيمًا أو أبًا لأيتام أو أميًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة أو شابًا طامعًا في مال.. صار للعريس صورة داكنة رمادية الملامح.. نعم فلقد ضيعنا الفرص في الشباب.. وإذا وقع الجمل كثرت سكاكينه.. الخطّاب كثر ولكن أين الكفؤ؟!!

اليوم صار الخيار مرًا، وتقدم خطوة في هذا الطريق يجب أن يحسب لها ألف حساب، واتخاذ القرار لم يعد سهلًا، نادية تفقد شيئًا من مقوماتها مع مرور الأيام.

دارت بي الأفكار ثم عاد بي صوت المدعوات يباركن ويهنئن: (عقبال نادية إن شاء الله)،.. (إن شاء الله) قلتها بمرارة.

في داخلي بركان يكاد ينفجر، ودموع تريد أن تنهمر.. هل أبكي شباب ابنتي الذي ذبل؟ أم أبكي غروري الذي أضعت بسببه الفرص؟ لم أكن أبدًا أمًا مثالية أبحث عن الكفء فقط، كنت أقف مع نادية حين ترد الخطاب الواحد تلو الآخر.. حبي لها ودلالي أعماني عن هذا كله. ظننت الحياة تسير بلا رجل يحميها.. ما علمت أن السفينة تضيع بلا ربان ولكن اليوم سأفرح بنجوى وغدًا إن شاء الله سأفرح بنادية حين أجعل في قلبي وعقلي مساحة للتفكير بجدية هذه المرة في العريس. حين أقنع ابنتي بالتنازل عن بعض الشروط والنظر إلى الواقع بعين مختلفة عن السابق فالأيام تمضي.. وتبقى الحسرة(*).

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

obeikandl.com